

سليمان بن سليمان النبهاني

شاعر من عصر النباهنة في عُمان



الدكتور علي جواد الطاهر



سليمان بن سليمان النبهاني

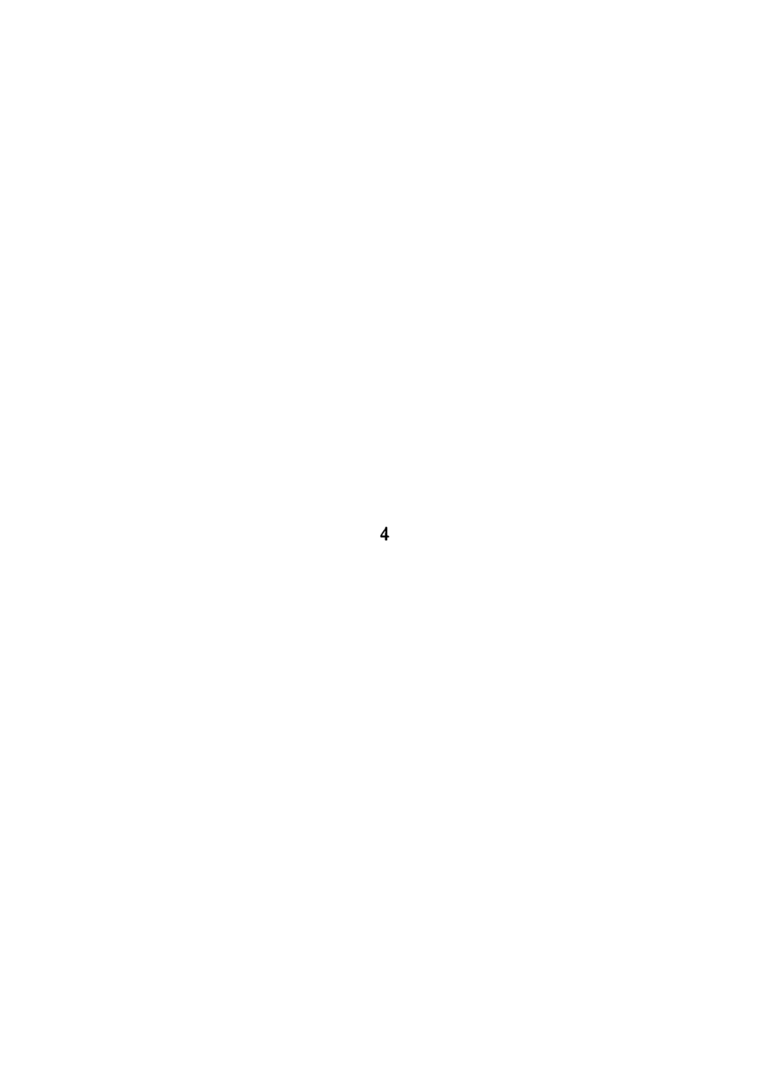
* سليمان بن سليمان النبهاني
شاعر من عصر النباهنة في عُمان
* الدكتور علي جواد الطاهر

* الطبعة الأولى 1995
* الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع
اللاذقية – ص . ب 1018– هاتف 422339 – سورية

سليمان بن سليمان النبهاني

شاعر من عصر النباهنة في عُمان

الدكتور علي جواد الطاهر



المقدمة

بقيت عُمان مجهولة لأمد طويل من العصر الحديث بسبب مباشر من سياسة سلاطينها، وعزلة ملحوظة على أهلها عن سائر الأقطار العربية فضلاً عن أقطار العالم كله. أقول: ملحوظة، لأنك لا تعدم دلائل على الصلة، إنْ في الأدب وإنْ في الحركة السياسية. وكانت «الثورة» علامة بارزة لذلك، وعاملاً من العوامل.

ولا غرو أن عُدّ عام 1970 بدء العصر الحديث فيها.

وفي هذا العصر الحديث دخلت معالم «المدنية» إلى البلاد، وزاد اتصال أهلها بالخارج، وشرع العالم يعرف شيئاً عما في الداخل، كما شرع القطر يتنبه لنفسه، وفي التنبه للنفس يبرز التراث المكتوب. وإذا غلب على هذا التراث الفقه وتاريخ الأئمة، فللأدب حظ منه.

واختصت عُمان بوزارة لا نظير لها في الوطن العربي، هي «وزارة التراث القومي والثقافة» لما زخرت به من مخطوطات متناثرة هنا وهناك وعند هذا وذاك وكأنها ضائعة، فوجب حصرها وجمعها في مكان واحد (قدر الإمكان) والعمل الجاد على تحقيقها ونشرها. وقد عملت الوزارة وأجادت.

وقامت الوزارات الأخرى بواجبها. ومن تلك الوزارات، وزارة الإعلام.

أجل، ولعُمان تاريخ حافل، وأدب جم، وتطور عمراني لا شك فيه وإن جاء متأخراً. ولكننا بقيناً ـ لسبب وآخر ـ بعيدين عن العلم به، أو الإلمام بما ندعي معه العلم ونجرؤ على الحديث عنه.

ولا بد من سبب جاد يدفع إلى هذا العلم أو الإلمام. وقد وقع لي هذا السبب ـ إذا سمحت لنفسي بالحديث عن فرد ـ يوم عزمت مجلة «عالم الكتب» التي تصدر في «الرياض» على إصدار عدد خاص بـ «الكتاب الخليجي»، ورأى رئيس تحريرها الدكتور يحيى محمود ساعاتي أن «يستثيرني» إلى الإسهام فيه منطلقاً من قرب لي

بـ «الكتاب السعودي». فاعتذرت متهيباً، حريصاً على الوقت والحقيقة. فألح وقد أحسن لي بثقته هذه بي. فكان أن كتبت «بحثاً» مطوّلاً عن «الكتاب الخليجي» نشرته المجلة في عددين هما الرابع من المجلد الثالث (ربيع الآخر1403/ يناير 1983) والأول من المجلد الرابع (رجب 1403/ ابريل 1983)، وفي هذا العدد ورد الحديث عن «كتاب عُمان»، وقد كشفت لي عن «كنز» ظل مجهولاً لدينا، وكانت مفاجأة لم تمض دون لوم النفس ـ مسؤولة كانت أم غير مسؤولة ـ على هذه الغفلة.

وربما خفف من درجة هذا اللوم، أني حاولت أن أبقى ـ قدر الإمكان ـ غير بعيد عن الكتاب الخليجي. وكان في ذلك أن صدر لي «معجم المطبوعات العربية / السعودية» في جزءين (بغداد 1405 1985هـ) مع نية صادقة على الاستمرار في «بحث» الكتاب الخليجي بغية التوسيع في «مادة» «عالم الكتب» لإصدارها في كتاب مستقل وهذا يعني الاستمرار على تسقط أخبار الكتاب الخليجي فيما يصدر منه أو يكتب عنه. ورأيت من إخواننا المصريين الدكتور علي عبد الخالق على أن نفذ إلى عُمان فوقف على أدبها وأصدر كتاباً بعنوان «الشعر العُماني..» ـ القاهرة، دار المعارف 1984 ، 244 ص . وقد اطلعت على الكتاب وأفدت منه.

وتبقى النية الصادقة بانتظار التنفيذ، والدوافع على التنفيذ. وها هو ذا الدافع الأول يحصل بقرار «اتحاد الكتّاب العرب» تخصيص ندوة للأدب في الخليج العربي تقام في «أبو ظبي» بالتعاون مع «اتحاد الكتّاب والأدباء في الإمارات الغربية المتحدة ووزارة الإعلام فيها».

ويتفضل رئيس «اتحاد الكتّاب العرب» (الأستاذ حميد سعيد) فيدعوني إلى الإسهام، ويكون الجواب الطبيعي للدعوة: بحث «الكتاب الأدبي في الخليج العربي». وتجرى الندوة من 1/10 ـ 1/14/ 1988. ويطلع المنتدون على البحث، فيلقى صدى حسناً لم يلبث أن ازداد بعد سماع موجزه والمناقشة فيه وإعلان أسفي الشديد على عزوف من يهمهم الأمر في وزارات الثقافة والإعلام لدول الخليج عن الإجابة عن أسئلتي.

ولا بأس

فقد كان من حسنات الندوة الالتقاء بأفاضل الأدباء، وبفاضل عُماني من هؤلاء الفضلاء هو الأستاذ هلال محمد العامري، وبفاضل قطري هو الدكتور عبد الرحيم قافود (كافود).

وقد رجوت الفاضل العُماني ـ خصوصاً ـ أن ينبهني على ما في مطلب «عُمان» من خطأ أو نقص . وإذا كان الخطأ قليلاً، فقد يكون النقص غير قليل.

وانتهت «الندوة» على خير ما يكون. وعدت إلى بغداد. وقلت: لا بأس في إصدار البحث كتيباً منفرداً ما ينفع وينبه ويستثير. وهكذا رحب به الأستاذ موسى كريدي رئيس تحرير سلسلة «الموسوعة الصغيرة» بدار الشؤون الثقافية العامة وقدمه إلى المطبعة.

وحدث خلال ذلك أمران مهمان أولهما ما تفضل به الأستاذ هلال العامري من الاتصال بوزارة التراث القومي والثقافة لتهدي إليَّ مجموعة قيمة من مطبوعاتها الأدبية والتأريخية. وثانيهما دعوة من رئاسة جامعة قطر للإسهام بموسمها الثقافي لعام 1989 (بتوقيع الدكتور عبدالله جمعة الكبيسي ـ مدير الجامعة بالنيابة). وورد في خلال المراسلات (مع الدكتور محمد عبد الرحيم قافود عميد النشاط الثقافي، والدكتور يحيى الجبوري الأستاذ العراقي في جامعة قطر) إشارات توحي بأن المفضل في الموضوع المختار للموسم الثقافي أن يأتي في مادة خليجية. فكان الجواب: «الكتاب القطري..»، وهكذا فعلت، وتمّ ذلك في الأسبوع الأول من آذار. فكانت فرصة أفدت فيها من «المكتبة القطرية» والتقيت خلالها بالدكتور علي عبد الخالق علي فأهداني ـ فيما أهداني ـ كتاباً له عن الشاعر العُماني: «الستالي» ـ القاهرة، توزيع دار المعارف 1984 ـ 344 ص .

وحاولت أن أفيد من الأمرين في تعديلات أجريها على كتاب «الموسوعة الصغيرة» فلم أستطع، وحاولت أن أشرف على تصحيح «تجربته» فلم أستطع كذلك. وقد صدر الكتيب عام 1989 بالرقم (301) من السلسلة. ولا بأس، فقد يعاد طبعه، وقد يوسَّع، وقد وقد...

8

التمهيد[1]

سكن العرب عُمان مبكراً. وإذا لم نقف عند التاريخ القديم جداً للمنطقة كلها منذ ما عرفنا عن السومريين رأينا أكثر المؤرخين العرب يشيرون إلى العرب في المنطقة، وإن أكثر الأخبار تتحدث عن هجرة يمانية (يمنية) حصلت لدى انهيار سد مأرب، وإن مالك بن فهم الأزدي سار بقومه حتى دخل عُمان وانتصر في معركة على جيش فارسي تصدى له. ومن المؤرخين من يرد ذلك إلى عام 635 ق. م، ومنهم من يرده إلى عام 400 ق .م . ومضى العدد العربي ـ بعد ذلك يزداد، ونسل مالك بن فهم يتعاقب على الحكم، والبقعة الجغرافية لنفوذهم تتسع.

وحين انقضى ملك أولاد مالك، انتقل الحكم إلى آل الجلندي بن المستكبر من أولاد معولة بن شمس. وفي عهد الجلندي أو عهد ابنيه (عبد وجيفر) دخل الإسلام إلى عُمان مبكراً في عهد «الرسالة» .

وجاء البلاد ـ مبكراً كذلك ـ رجلان أحدهما عبدالله بن أباض ينشران مبدأ «المحكمة» الذي اقترن بابن أباض ونسب إليه فعرف بالأباضية. وإذا كانت الاباضية من الخوارج، فإنها تريد بكلمة «المحكمة» أن تتميز من الفرق الأخرى من أزارقة وصفرية، أو تبتعد عنها، أو عن التطرف في الأقل . وكثرت الإباضية في البلاد وبقي الحكم في آل الجلندي وكادت البلاد تبدو بمنأى عن الحكم المركزي (الأموي) حتى قيام عبد الملك بن مروان. وكان الحجاج ـ والي العراق ـ يتابع إرسال الجيوش إلى عُمان حتى قضى على آل الجلندي وجعل عُمان ولاية تابعة له.

وظلت عُمان تتربص الفرص حتى إذا ضعفت الخلافة وازداد الأباضيون قوة ثاروا وانتخبوا سنة 132 أول إمام لهم: الجلندي بن مسعود بن جيفر الأسدي ـ وهو أحد أبناء الجلندي بن المستكبر ـ حكم سنتين وشهراً واحداً فقد قتل في حرب

شنها عليه العباسيون بقيادة خازم بن خزيمة، وانقطعت بقتله الإمامة، وبقيت البلاد تابعة لبني العباس حتى عام 177 .

وعاد الأئمة يتتابعون ـ في عاصمتهم نزوى ـ بعد عام 177: محمد بن أبي عفان الأزدي، والوارث بن كعب الخروصي ، وغسان بن عبدالله، وعبد الملك بن حميد الأزدي، والمهنا بن جيفر اليحمدي الخروصي، والصلت بن مالك الخروصي، وراشد اليحمدي الخروصي.

وفي عهد راشد اليحمدي الخروصي (273 ـ 277) ثارت العصبية القبلية بين القحطانية (وإليها يرجع الأزد، واليحمد... والأئمة، وأكثر السكان) والنزارية ثم اشتدت في عهد عزان بن تميم الخروصي (277- 280) وحاول المضريون (من نزار) خلع الإمام الخروصي، فسيّر الإمام إليهم جيشاً واشتد عليهم، فاستنجدوا بالعامل العباسي (محمد بن بور) فانتصر هذا، وجعل على عُمان عاملاً اسمه أحمد بن هلال نقل العاصمة من نزوى إلى بهلا (بُهلى).

وفي عام 317 جاء قرامطة من البحرين بقيادة أبي طاهر القرمطي فغلبوا على عُمان، إلى أن حكم بنو مكرم.

وتتابع الأئمة خلال ذلك، ويمكن أن نعد منهم اثني عشر إماماً.

وتنقطع الإمامة عام 322 بموت راشد بن الوليد.

وبقيت البلاد خاضعة للولاة مدة خمسة وستين عاماً انتخب ـ بعدها ـ عام (407) الخليل بن شاذان الخروصي إماماً. وتوالى بعده أئمة. يمكن أن تعد منهم تسعة، منهم (الخليل بن عبدالله بن محمد بن الخليل بن شاذان) من أعاد العاصمة إلى نزوى، وقهر الرستاق ونخل وجميع مدن الباطنة.

وفي عهد الإمام الخليل بن عبدالله، هذا، شرعت أسرة، عشيرة في نزوى من الأزد إلى نبهان، تدل على وجودها، وتعرب عن مطامحها في الحكم فقاتلها الإمام في نزوى وغلبها.

ولكن الإمامة لم تبق على قوتها، وشرعت تضعف، وندخل القرن السادس مع أربعة أئمة من الرستاق ضعاف لا يذكرهم التاريخ في شيء وقد دبت الفوضى وتفرق الناس في عهدهم شيعاً، برزت بينهم (في عُمان) طائفتان متنازعتان متخاصمتان... فتهيأ بذلك جو مناسب للطامحين الطامعين في الحكم، ولم يكن في البلاد آنذاك مؤهلين لاهتبال الفرصة غير أولئك الذين سبق أن أعلنوا عن نفسهم وغرضهم في عهد الإمام الخليل بن عبدالله فلم تواتهم الفرصة آنذاك، أما الآن فهي لهم وحدهم، لآل نبهان الذين سيطوحون بالإمام

ويحكمون سادة أو ملوكاً أو سلاطين حكماً دنيوياً يقع على الطرف الأبعد من الإمام والأئمة.

وهكذا تم لهم الأمر منذ أواسط القرن السادس ولم ينته إلا في القرن الحادي عشر. وآل نبهان، أو النبهانيون، أو النباهنة من العتيك من الأزد فهمُ شأن الغالب الطاغي على أهل عُمان ينتهون ـ في نسبهم ـ إلى يعرب بن قحطان[2].

ويصعب ـ أو يستحيل ـ على مؤرخ أن يدّعي القدرة على كتابة تاريخ متصل الحلقات واضح المعالم لدولة النباهنة. يعترف بذلك المؤرخون أنفسهم، وفي مقدمتهم مؤرخ عُمان الكبير العلامة الشيخ نور الدين أبو محمد عبدالله بن حميد السالمي صاحب كتاب «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان» وهو الذي تهيأت له أمهات المصادر على تنوعها بين الأدب والتاريخ والفقه... وقد استوقفته الحال فقال معللاً إياها بأنه «وحيث كانت دولة هؤلاء مبنية على الاستبداد وقهر الناس بالجبرية لم نجد لدولتهم تاريخاً...»[3] فهو يعزو الأمر إلى ما كانوا عليه من ظلم للرعية، وعداء صريح للأئمة (ضمناً)، والسالمي إمام ميله ـ كما يجب ـ إلى الأئمة. ولكن ظلم الحاكم لا يمنع المؤرخين من كتابة تاريخه في زمانه أو بعده، له إن لم يكن عليه.

ويزيد الشيخ عبدالله السالمي ويقول «وأهل عُمان لا يعتنون بالتاريخ فلذلك (غاب) عنا أكثر أخبار الأئمة فكيف بأخبار غيرهم»[4].

وهذا قول رجل ثقة، ولكنه لا يمنع التعليق عليه لأننا نرى أهل عُمان يعتنون بالتاريخ، ويكفي من ذلك ما ذكره الشيخ السالمي نفسه من مصادر، وما وصل إلينا من هذه المصادر وما ورد منه في «السِّيَر»... إن أخبار الأئمة الكبار محفوظة في أكثرها، والذين غابت عنا أخبارهم هم الأئمة الضعاف خصوصاً ممن لم يكن لهم شأن، أو وجدوا في زمن غلب فيه الحاكم «المدني».

إن الذي ذكره التاريخ من أخبار النباهنة نتف قليلة متقطعة محدودة لا تغني الباحث فتيلاً. وربما كان الشيخ عبدالله السالمي أول من وقف حائراً وهو يؤلف كتابه «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان» وانتهى في تعليله على الوجه الذي رأيناه، بعد أن علل غلبتهم بأنها «إرادة الله تعالى من إنفاذ أمره في أهل عُمان فإنهم لما افترقوا فرقتين وصاروا طائفتين نزع الله دولتهم من أيديهم وسلّط عليهم قوماً من أنفسهم يسومونهم سوء العذاب» فقدم بذلك التعليل الديني الصرف لقيامهم عقوبة لتفرّق أهل عُمان وتناحرهم. ثم زاد:

(قال في «كشف الغمة» ولعل ملكهم كان يزيد على خمسمائة سنة. قال إلا

أنه كان فيما بعد هذه السنين يعقدون للأئمة والنباهنة ملوك في شيء من البلدان، والأئمة في بلدان أخر، والله أعلم. وإذا استقريت التواريخ أخبرك الحال أن بني نبهان ملكوا مرتين ...)[5].

وقوله مرتين يعني وقوع فاصل ما، أو فتور خلال حكمهم ما بين أواسط القرن السادس والعاشر. وهذا ما أكده مؤرخ آخر هو محمد السالمي حين رأى أن «حكم بني نبهان» جرى (...) على «دفعتين» كان بينهما فاصل غير قوي[6] يعلو فيه خصوصاً حكم الأئمة.

ولا يخلو تحديد الدفعتين أو المرحلتين من صعوبة، ولكن الممكن أن يقال إن المرحلة الأولى بدأت في القرن السادس واستمرت طوال القرن السابع لتحدها إمامة الحواري بن مالك سنة 809 فيتضح مقام الإمامة طويلاً في القرن التاسع. وهذا الطول من القرن التاسع يعني الفتور النبهاني.

وإذا كان سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني قد دفع الفتور بعنفوان خاص خلال مدة إذا صعب تحديدها فهي تتراوح بين عشر سنوات، وربع قرن لاختلاف المؤرخين في تاريخ وفاته، وربما ذكروا لذلك العامين الآتيين 910 ـ 915 . ليعود بعده الفتور إلى ما كان وإلى ما هو أشد مقابل تعاظم سلطان الإمام.

ويدب الخلاف بين الأئمة ويعتور قوتهم الضعف أيام الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل، وقد «بقي بركات عند المرتضين له حتى سنة 964 أربع وستين وتسعمائة. وفي هذه الآونة عادت السلطة النبهانية إلى سيرتها الأولى[7] بشخص سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان» وقد اتخذ مقره في نزوى، وتوزع أخوته وأنصاره... يحكمون (ينقل والظاهرة وبهلى وصحار وسمائل والرستاق والفنيات). وتولت البرتغال الساحل،و في الساحل : مسكد (مسقط) وصحار وجلفار وقريات[8].

وهذا عام 964 يمثل بدء المرحلة الثانية من سلطنة النباهنة ، وهذا سلطان ابن محسن يمثل أول ملوكها.

ومضت الأمور بين رخاء وشدة، ووئام وخصام... وإذا كان شأن الأئمة في شتات فلا بد من يوم يتنبهون فيه لأنفسهم، ويظهر بينهم شخص قوي حكيم يوم ينحدر السلطان النبهاني في الخلافات والضعف ـ وهذا هو الذي حصل حين ظهر في الرستاق «الإمام ناصر بن مرشد» حفيد مالك بن أبي العرب الذي كان له الرستاق أيام النباهنة، وكأنه حكومة مستقلة، وقد عقدت له الإمامة عام 1024 (أربعة وعشرين بعد الألف) فكان مسكنه قصرى محلة من الرستاق[9]. ومضى

يتوسع، ويفتح البلاد وبظهور الإمام ناصر يلتقي في الحاكم مجدداً الإمامة والسلطان، وهكذا ينتهي العهد النبهاني على يده في الربع الأول من القرن الحادي عشر لينهض عهد جديد أسسه الإمام ناصر بن مرشد باسم: العهد اليعربي، أو اليعاربة[10].

ونعود إلى ما كنا فيه من أمر «النباهنة»... وإذا كُنّا قد رأينا في مصادر تأريخهم غياباً يكاد يكون تاماً.. فإن مصادر أدبهم ليست في حالها أحسن كثيراً وإذا قال قائل: «وقد ازدهر الأدب والفن في عهد النباهنة وشجعوا الشعر»[11] أرجعنا قوله إلى التعميم، وطالبناه بالدليل، بعد طرح المدلول الحديث لكلمة «الفن». أما ما كان من مؤلفات في الفقه ـ قد يتخللّها شيء من الأدب ـ فهي من عمل الفقهاء بعيداً عن السلطان الدنيوي، نذكر منها[12]:

للكندي (أبو بكر أحمد بن عبدالله بن موسى) ـ المصنف في24 مجلداً أو 41 ـ والكفاية في 51 مجلداً ـ وقيل 70

وللأصم (عثمان بن أبي عبدالله)ـ التاج في 51 مجلداً، والبصيرة (بصيرة الإيمان) والنور (كتاب النور).

ولولده عبدالله ـ الإبانة والصكوك الكتابية، والرقاع في أحكام الرضاع.

ولحفيده (أحمد بن سليمان بن عبدالله) ـ (ابن النظر) ـ سلك الجمان في سيرة أهل عُمان (أربعة مجلدات)، أبو حميد في التقليد (مجلدان)، مرمى البصر في جمع مختلف الأثر (أربعة مجلدات). وكان لابن النظر هذا ديوان يغلب عليه الغزل مزّقه وعوضه بمنظومات في الشريعة.

ومن هذه الكتب ما فقد مع الزمن، ولم يصل إلينا إلا اسمه أو وصفه. ومنها ما وصل ولكنه بقي سجين المكتبات الخاصة، ومنها ما حصلت عليه «وزارة التراث القومي والثقافة» وشرعت تصدره أجزاء متوالية كما هو الشأن مع «المصنف» و«التاج».

وتسأل عن الشعر، والجواب أن الذي وصل منه قليل، ورد شيء منه متناثراً في طوايا كتب الفقه أو التاريخ، ولا يدل الذي وقفنا عليه منه على شاعرية تذكر. ويبقى ـ بعد ذلك ـ ثلاثة دواوين للستالي وسليمان بن سليمان النبهاني، والكيذاوي. الستالي للمرحلة الأولى من تاريخ النباهنة، والكيذاوي للمرحلة الثانية، والنبهاني لما بينهما مما عرفناه بالفتور بين المرحلتين. وإذا كان الشيخ السالمي قد قال وهو يتكلم على بني نبهان: «...لم نجد لدولتهم تأريخاً ولا لملوكهم ذكراً إلا من ذكره الستالي منهم في ديوانه...» فألمح بذلك إلى ما في

الديوان من مادة يمكن أن ينتفع بها المؤرخون[13] فإن ذلك يصح على الديوانين الآخرين. وسنرى شيئاً من هذا في دراستنا هذه عن سليمان بن سليمان النبهاني، فضلاً عما نرى في الديوان من مادة لتأريخ الأدب، وأمثلة على أصالة ظلت طويلاً بعيدة عن الأنظار، وقد حان الإعلان عنها.

الحواشي:

أهم المصادر والمراجع في كتابة هذا التمهيد :

1 ـ «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان» للإمام نور الدين عبدالله بن حميد السالمي. الجزء الأول. قام بطبعه وتصحيحه والتعليق عليه أبو إسحاق ابراهيم اطفيش الجزائري الميزابي، الطبعة الثانية، مطبعة الشباب، القاهرة 1350 . وقد تكرر طبعه بعد ذلك.

يليه كتابا ولده محمد ـ أبو بشير محمد شيبة بن نور الدين عبدالله بن محمد السالمي ـ «نهضة الأعيان بحرية عُمان». القاهرة، مطابع دار الكتاب العربي د. ت.

ـ عُمان تاريخ يتكلم (بالاشتراك مع ناجي عساف)، دمشق، المطبعة العمومية 1963 .

وكتابا السيابي ـ الفقيه الشيخ سالم بن حمود بن شامس السيابي ـ «عُمان عبر التاريخ»، الجزء الثالث، الطبعة الثانية 1407/ 1986 طبع في القاهرة، مطابع سجل العرب.

ـ إسعاف الأعيان في أنساب أهل عُمان . دمشق ـ بيروت، منشورات المكتب الإسلامي 1385/ 1965 .

وكتاب مجهول المؤلف ـ عنوانه: تاريخ أهل عُمان . تحقيق وشرح دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ط 2 1406/ 1986 القاهرة، أمون للتجليد والطباعة. (وزارة التراث القومي والثقافة ـ عُمان).

ولم ير كاتب البحث ضرورة لإثقال الهامش بالإحالات، لما هو في طبيعة كتابة «التمهيد» ولأن المادة التي نقلها في هذا التمهيد مقررة لدى المؤلفين كلهم متفق عليها ويكاد يكون مصدرهم كلهم كتاب «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان» فهم يفيدون منه وينصون عليه وقد يشرحون ويوضحون...

ويزيد أنه رجع إلى الأعلام ـ خير الدين الزركلي، بيروت، دار العلم للملايين 1979 للإلمام بالأعلام، وإلى معجم البلدان ـ ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر... للإلمام بالبلدان زيادة على ما ثبته عز الدين التنوخي لدى شرحه الديوان وتحقيقه.

ووردت إشارات إلى مراجع أخرى في «المقدمة» منها بحث للكاتب نفسه في مجلة «عالم الكتب» وفي كتيب بعنوان «عن الكتاب الأدبي في الخليج العربي» وكتابا الدكتور علي عبد الخالق علي «الشعر العُماني» و «الستالي» ومنها دواوين الشعراء الثلاثة (الستالي، النبهاني، الكيذاوي).

وينظر كتاب «شقائق النعُمان» 2/ 179 ـ 197 .

وإذا كانت هذه مصادر للتمهيد ومراجع، فهي المهم في مصادر البحث (بعد ديوان الشاعر)

ومراجعه في معنى ما تلقيه من أضواء على الشاعر وشعره لتزيد وضوحاً وتفسر غامضاً وتردم ثغرة وتهيء جواً.

2 ـ تحفة الأعيان ـ باب «انتقال الدولة إلى بني نبهان» 1/ 303 ـ 349 .

3 ـ نفسه.

4 ـ نفسه 1/ 304 .

5 ـ نفسه 1/ 303 . و«كشف الغمة» من مصادر الشيخ السالمي المهمة، واسمه الكامل: «كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة» لسرحان بن سعيد الشرجي الأزكوي (؟) (من عهد اليعاربة بعد العهد النبهاني). والكتاب ضخم استل منه الأستاذ عبد المجيد القيسي جزءاً «صغيراً» نشره بعنوان «تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة»، جاء في «مقدمته» لما في الطبعة الثانية 1406/ ,1986 القاهرة، مطابع سجل العرب (عُمان ـ وزارة التراث القومي والثقافة) إن المؤلف مجهول لدينا، وأنه أراد بكتابه الدعوة إلى عقيدته الأباضية. أما الذي استله المحقق من الكتاب فهو «الجزء الخاص بتاريخ عُمان...فقط» «وهو وإن يكن جزءاً صغيراً منه إلا أنه من الوجهة التاريخية الصرفة أهم ما في الكتاب»، جاء الجزء في أكثر من (150) صفحة .

ونذكر ـ هنا من مصادر عُمان ومصادر السالمي ما أشار إليه المحقق وهو كتاب «قصص وأخبار جرت في عُمان» تحقيق عبد المنعم عامر، ط 2 - 1403 1983 القاهرة، مطابع سجل العرب (عُمان ـ وزارة التراث القومي والثقافة) ويرى محققه أنه من تأليف أبي سليمان بن محمد بن عامر بن راشد المعولي وقد أفدنا من الكتابين.

6 ـ عُمان... تاريخ يتكلم، 94 .

7 ـ عُمان عبر التاريخ 3/ 135 ـ 141 .

8 ـ ينظر تحفة الأعيان 1/ 349 عُمان عبر التاريخ 3/ 165 .

9 ـ عُمان عبر التاريخ 3/ 180ـ 182 . وتنظر التفصيلات في «تحفة الأعيان».

10 ـ تنظر المصادر والمراجع المذكورة في (ا) من هذه الهوامش . و «سيرة الإمام ناصر بن مرشد» بقلم عبدالله بن خلفان بن قيصر، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، الطبعة الثانية 1403/ 1983 القاهرة، مطابع سجل العرب (عُمان ـ وزارة التراث القومي والثقافة).

وكتاب قائم عليهم هو: «دولة اليعاربة في عُمان وشرق أفريقيا» (1624 ـ 1741) تأليف عائشة السيار، بيروت، دار القدس 1973 .

11 ـ عُمان... تاريخ يتكلم 150 .

12 ـ عن الكتاب الأدبي في الخليج العربي ص 110 ـ 111 عن تحفة الأعيان.

13 ـ تحفة الأعيان: «لم نجد لدولتهم تاريخاً ولا لملوكهم ذكراً إلا ما ذكره الستالي منهم في ديوانه...» 303/1 ـ 304. ويزيد عددهم في الديوان على ما ذكره الشيخ السالمي هنا...

16

1 ـ حياته في التاريخ

إذا كان «التاريخ» قد أهمل تأريخ النباهنة وهم في قوتهم في الدفعتين الأولى والثانية، فالأولى أن يهملهم فيما بين الدفعتين من فتور. وإذا كان سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني قد برز علماً ناهضاً خلال الفتور[1] فإن موقفه الحاد من الأئمة كفيل بطمس معالمه وإغفال ذكره، وربما كان كفيلاً بذكر السيء من أفعاله أو تجسيم هذا السيء أو تصديق ما قد يكون غير صحيح.

وإذا كان مؤرخ علامة هو الشيخ نور الدين أبو محمد عبدالله بن حميد السالمي صاحب «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان» ينص على ضياع أخبار النباهنة، ويزيد بالنص على إهمال تاريخ الأئمة أنفسهم[2].. فالأولى أن يضيع تاريخ سليمان بن سليمان، واستحال أن نعرف تاريخاً لميلاده. أجل، وقد بحث «الزركلي» فعجز، ولكن كاتب مقدمة ديوانه في طبعته الثانية يرى الميلاد «في النصف الأول من القرن التاسع الهجري (الرابع عشر للميلاد)..»[3] ولم يذكر مصدره، ولا تدل الرؤية على أكثر من الرؤية، لأن المصادر (والمراجع) لا ترينا سليمان بن سليمان إلاّ وهو فتى، شاب أو أكبر من شاب منتفض شرراً من تحت رماد فتور أسرته[4] وقد دفعها إلى زاوية النسيان سلطان الأئمة، ومضى هذا السلطان الإمامي مع النباهنة إلى درجة «تغريق» أموالهم واستعادتها لترجع إلى أهلها وأصحاب الحق فيها على أساس من أن السلطان النبهاني كان قد اغتصبها ظلماً وعدواناً وطغياناً على ما يخالف الشرع[5]. و «التفريق» مصطلح هذا معناه. وقد وقع الحكم هذا ختاماً أكيداً للدفعة الأولى من السلطان النبهاني وفي عهد إمام قوي هو «عمر بن الخطاب بن محمد بن أحمد بن شاذان بن صلت بن مالك الخروصي». بويع له في سنة خمس وثمانين وثمانمائة[6].

وتفصيل هذه الحال يبدأ من عنفوان السلطان النبهاني وتواري الإمامة، بل مما

بين النباهنة والأئمة من كر وفر «فتارة ترتفع راية الإمامة، وتارة تقوم الملكية، ولها كبكبة» واستمرت الغلبة للنباهنة طويلاً، وإذا تنفس إمام فمقدار ما يمكن تعليله بالمهادنة كما جرى للإمام الحواري بن مالك وقد «بويع (...) في العهد النبهاني في سنة 809 تسع وثمانمائة (...) فقام بواجب الشرع (...) وأقام في إمامته ثلاثاً وعشرين سنة (...) ولم أجد شقاقاً بينه وبين بني نبهان ولا ذكروا له حروباً، وهذا الوقت وقتهم، ولعلهم تهادنوا وإياه، فإن الأئمة في غالب عهد بني نبهان يكونون في بلد، والسلطان النبهاني في آخر»[7].

ولا نعرف شيئاً عن سليمان بن سليمان بن مظفر في هذا التاريخ، ولا عن عمره أو ميلاده فيه، ولكننا نعرف جيداً أن الزمام ما زال بيد النباهنة يقدمون ويؤخرون ويتولى خلال ذلك أئمة لا أثر لهم ولا يكاد يُعرف لهم تاريخ، فحين توفي الإمام الحواري سنة 832 عقد أهل الفضل الإمامة لابنه مالك بنزوى ولم تطل إمامته فقد توفي عام 833 «ولم يعرف تحقيقاً بعد موت مالك الحواري ماذا صار حتى بويع الإمام أبو الحسن - بن خميس بن عامر - في شهر رمضان 839»[8] وربما جاءت إمامة أحمد بن محمد الزنجي في الفاصل بين الإمامين[9]. وتوفي الإمام أبو الحسن بن خميس بن عامر في سنة 846 والأمور في يد بني نبهان[10].

وأقل ما في القول: إن الأمور بيد نبهان، دلالته على قوتهم، وإن السلطان لهم، وإن الناشىء منهم ينشأ على هذا الذي يراه من «عز» أسرته وسلطانها.

أما معناه لدى المؤرخ الديني فإطلاق صفة «الجبابرة»[11] على هؤلاء السلاطين، أو الاستمرار على إطلاق هذه الصفة. وهي تطلق للذم والدلالة على عسفهم وظلمهم، أجل فـ:

«لما توفي الإمام أبو الحسن بن خميس بن عامر في سنة 846 بقيت الأمور في يد بني نبهان يتلاعبون بها كيفما شاءوا، ويفعلون في الأمة كما تهوى أنفسهم، ورأوا ذلك هو العز والشرف . أغمار غلب عليهم الجهل واستمروا[12] للباطل ، وكانت عقولهم مقصورة على كلمة السيد أو السلطان أو الملك، ولم يرفعوا رؤوسهم إلى أعلى من ذلك المستوى، فهوت المملكة العُمانية وتحطمت أركانها، وأصبحت تتناقص أطرافها، ويتقلص ظلها، وينضب معينها، وهم في تيههم عاكفون على الشهوات، يتظالمون فيما بينهم، ويظلمون الرعية، ويمتصون الثروة أين وجدوها، ويستصفون أموال العباد ولا يبالون»[13].

لا بد من أن يكون في هذه السطور غير قليل من الصحة، حتى لو تجاوزنا

الحماسة الدينية للإمامة فيها. وإذا كانت هذه السنوات الأخيرة (من دفعتهم الأولى) تمثل مجدهم وبؤسهم، وإنها يمكن أن تورث الناشىء فيهم معنى «المجد» بعيداً عن «البؤس» أو المعنى العشائري في أقل تقدير؛ إذا كانت كذلك، فإن الذي يمكن أن يفسر جانب السلب فيها ما جاء بعدها ـ أو بسببها ـ من أحداث. والناشىء الفتى الشاب أو من تعدى طور الشباب يشهد عنفوان الحاكمين من أسرته وفيهم أبوه وجده، ويشهد ما يؤول إليه هذا العنفوان من بؤس . وليكن هذا الفتى ـ الكهل سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني ، وليكن بانتظار السلطنة أو فيها...

وها نحن أولاء في سنة خمس وثمانين وثمانمائة وتعقد البيعة بالإمامة لعمر ابن الخطاب بن محمد بن أحمد بن شاذان بن صلت بن مالك الخروصي[14] فـ «في سنة 885 ضاق المسلمون بهم ذرعاً، فاجتمعوا فيما بينهم وتشاوروا في أمرهم، فاعتمدوا على مبايعة عمر بن الخطاب، فقام بالأمر»[15].

قام بالأمر، وما زال في بني نبهان بقية من بقية، ويكفي أن يكون فيهم سليمان بن سليمان بن مظفر الذي يستكبر علو الإمامة على أسرته ويستكثر أن يخرج ما يراه حقه من يده، ويقضُّه زوال ملك بني نبهان الذي هو ملكه، فإذا الإمام هو الأصل بعد أن كان الفرع، وإذا الملك هو «الخارج» إذا انتفض على الإمامة بعد أن كان «الإمام» هو الذي يخرج على السلطنة. إن في سليمان بن سليمان بن مظفر طموحاً وحماسةً وجرأة ... حتى لو لم يكن السلطان عند قيام الإمام عمر بن الخطاب على تلك الصيغة من الحال وأسبابها، فكيف وفي الروايات ما ينص على أنه هو هو نفسه كان السلطان، السلطان النبهاني على عُمان يوم بيعة الإمام عمر بن الخطاب.

أجل، وهذا ما حصل.

بويع للإمام عمر بن الخطاب سنة 885 «فأقام سنة. وخرج عليه سليمان بن سليمان النبهاني فتواقعوا بحممت من وادي سمائل فانهزم الإمام وعسكره»[16].

أجل «في سنة 885 ... مبايعة عمر بن الخطاب... وكان السلطان إذ ذاك سليمان بن سليمان صاحب الديوان الحماسي، فثار بجيشه، وخرج الإمام برجاله. وكان الالتقاء ببلد حممت من وادي بني رواحة ـ وهي التي تعرف الآن بالجناة ـ وكان أكثر أنصار السلطان في هذه البادرة هم بنو رواحة، وهم القوام بأمره، فانهزم الإمام وعسكره[17].

وإذا كان النباهنة على ما رأينا من «جبروت» جرى نحو «الضعف» مقابل ضيق

الناس بالحكم ونشاط الأئمة... فالمنتظر ألاّ يتمتع سليمان بن سليمان بنصره طويلاً وقد وقع المنتظر وما هو أكثر من المنتظر.

فقد «جدد» أنصار الإمام عمر بن الخطاب له البيعة مرة ثانية. فصال على النباهنة صولة الأسد الصائل، فمكنه الله تعالى منهم وأورثه أرضهم وديارهم وقضى على أمولهم بالتغريق عشية الأربعاء لسبع خلون من جمادى الأخرى سنة سبع وثمانين وثمانمائة[18].

إن أنصار الإمام حين انتصر عليهم سليمان بن سليمان أول مرة وانهزموا «رأوا أنهم في كبيرة أمر، فلزمهم أن يتوبوا ويتراجعوا. ولعلهم كانوا استخفوا بالأمر، فعوقبوا عليه، فجدّدوا البيعة له مرة ثانية، فصال على النباهنة صولة الأسد فهزمهم هزيمة أتت على سحق قوتهم، وإبادة شملهم».

ولكن لم يذكر التاريخ أين وقعت الوقعة بينهم ، ولا ذكروا من قتل منهم، فإنه يمكن أن تكون وقعت عليهم وقعة أو وقعات ، أوجبت خضوعهم، فإنهم لا يخضعون بالهوينا ولا يكفي من المؤرخين مثل هذا التعبير، فإن الذكر الذي يعتمد عليه ينبغي أن يكون واضحاً، فإنهم قد أشادوا بذكر نصر الإمام وانتصاره عليهم إجمالاً.

وهذا الإمام السالمي المؤرخ الكبير يقول:

وفي بني اليحمد من أسد الشرى   إمام صدق كان يدعى عمرا
وقد قضى على بني نبهانا   جبابراً كانوا على عُمانا...

لكن المؤرخين العُمانيين يحازفون الحقائق غالباً...»[19].

«والحال تدل على أن السلطنة النبهانية هنا وهت، ولم تعد تستطيع القيام في وجه الإمام لمعارضة حكمه القاضي بتغريق أموالهم، وتمزيق شملهم، وتمكن المسلمون من تنفيذ أحكام الشرع تمكناً تاماً صحيحاً لا هوادة فيه...»[20].

وها نحن أولاء نصل إلى «التغريق» في ظرفه التأريخي وقد اتضح معناه ـ للمرة الثانية ـ فهو يعني حكم الشرع ـ الذي يمثله الإمام المتمكن ـ في أموال الحاكمين الظالمين الذين ابتزوا واحتازوا وملكوا وسلبوا ببطشهم وجبروتهم حقوق العامة لضعفهم. تستعاد هذه الأموال وكل ما غصب الحاكم الطاغية ليتوزعها أهلها المظلومون ويسترجعونها حلالاً لهم لأنهم أصحابها الشرعيون الحقيقيون . أما ما لا يعرف صاحبه من هذه الأموال، فهي للفقراء، أو «لعز دولة المسلمين» الذي يتولاه الإمام.

كان هذا في جمادى الآخرة من سنة 887 في عهد الإمام عمر بن الخطاب من بيعته الثانية. وقد أقام الإمام للبت الشرعي بالحال وكيلين، أبا عبدالله محمد بن سلمان بن أحمد بن مفرج وكيلاً لمن ظلمه آل نبهان من المسلمين من أهل عُمان، وأحمد بن عمر بن مفرج وكيلاً لملوك آل نبهان، فأفتى وكيل آل نبهان بأنه: «...قد صح عندي وثبت لديَّ أن جميع الأموال والأملاك التي خلفها السيد المظفر بن سليمان بن نبهان على ولده سليمان وشركائه ثم خلفها سليمان كلها قد استهلكت بضمانات الديون التي جناها من مظالم الناس المجهول منهم والمعلوم...» وقد أيد وكيل المظلومين الفتوى وشهد بذلك الشهود وأيدها الإمام فنفذت، وأعيدت الأموال إلى مستحقيها، وأحل الباقي منها للإمام...

ولنلاحظ ما ورد من تفصيل في إحدى روايات التوكيل عمَّن «ظُلم من المسلمين من أهل عُمان الذين ظلمهم السادة الملوك من آل نبهان من لدن السلطان المظفر ابن سليمان بن المظفر بن نبهان إلى آخر من ظَلَم من نسله وولد ولده الملكين سليمان بن سليمان وحسام بن سليمان». ففي ذلك ما قد يعني أن سليمان بن سليمان كان ملكاً أيام بيعة الإمام عمر بن الخطاب، ومع سليمان في الحكم أخوه الملك حسام بن سليمان[21]، وقد يسند إمكان الاستنتاج أن كلمة «ملك» أيام النباهنة ترادف كلمة «سلطان» فالسلطان ملك ، والملك سلطان . ومثلهما كلمة «السيد». وملاحظة أخرى هي أن التغريق صعد إلى جد سليمان بن سليمان وهو المظفر.

إن كل شيء في الجو يشير ويدل على نهاية السلطان النبهاني نهاية تامة لا رجعة إليه. فها هو ذا سليمان مغلوب مكسور، لا مال له ولآله كلهم ولا جاه، مذمومون مدحورون، وها هي ذي الإمامة متمثلة بعمر بن الخطاب ومن حوله لها الدين والدنيا. تذكر جيداً ما عانت أيام الجبابرة من تشتت وهوان وتشرد وانقطاع أو ما يشبه الانقطاع حتى كان يداخلها اليأس من العودة. ثم إنها مسؤولة عن الرعية والعدل في الرعية...

ولم تكن مدة إمامة عمر بن الخطاب قصيرة، ولئن اختلف في أمدها فقد قدرها مؤرخ ثقة هو الإمام نور الدين عبدالله السالمي بـ «تسع سنوات تقريباً»[22]. وإذا تذكرنا قول الإمام المؤرخ السالمي إن «أهل عُمان لا يعتنون بالتاريخ فلذلك غابت عنَّا أكثر أخبار الأئمة...» وجدنا الشاهد له هنا، حين مات إمام كبير خطير هو عمر بن الخطاب ولم يسجل له تاريخ وفاة، وأقصى ما وصل إليه الشيخ السالمي أن قال: «...ثم مات عمر بن الخطاب وقبره بنزوى، ولم أجد تأريخاً لموته إلا ما قالوا

في ذكر الإمام الذي بعده. فإن كانت بيعة هذا بعد موت هذا حالاً فإن إمامة عمر تكون تسع سنين تقريباً والله أعلم. وفي سنة أربع وتسعين وثمانمائة بايعوا لمحمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج القاضي البهلوي وكأنه عزل أو اعتزل»(23).

ويمكن أن يكون «لعزل أو اعتزل» معنى ، وقد يكون في هذا المعنى «وجود» لآل نبهان وأتباعهم فما كان حكم «التغريق» بالذي يمر دون أحقاد وثارات وتربص بالفرص على مر السنين ومن يدري فلعل هذا «الوجود» كان في تزايد، ولعل تزايده كان على حساب الإمامة ممثلة بعمر بن الخطاب، والتزايد في جانب الدنيا تناقص في جانب الدين وقد يفسر تزايد الدنيا ضياع تاريخ وفاة الإمام عمر بن الخطاب، قد. ومن المؤرخين (سالم بن حمود السيابي) من ألمح إلى «وجود» النباهنة خطراً بعد التغريق، وخطراً منتظراً مخيفاً: «لما انتهت الأمور النبهانية، وتقرر حكم تغريق أموالهم، و...توفي الإمام عمر بن الخطاب، وبقي في نفوس أهل الباطل من السوء ما بقي (...) بايع المسلمون محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج القاضي البهلوي. ولم يطل عهده فإنه من المحتمل أنه رأى الأمور تنظر إليه شزراً بحيث سبق من آبائه تغريق أموال الملوك النباهنة، والملوك مرهوبون من قبل سواد الأمة فاعتزل عن الإمامة أو أنهم عزلوه للأحوال التي يلاحظ وميض نارها. وما كل مجتهد مصيب، فإن من الناس من لا تواطئهم الأحوال ولا تثبت لهم بحال ، ولا سيما إذا اختلفت آراء الأنصار، فإن الإمام بأنصاره. أما وحده فلا يقدر على فعل تشترك فيه الأمة. وهناك أحوال تتلاعب فيها الأهواء...»(24).

إشارة هذا المؤرخ إلى «وجود» نبهاني أكثر من إشارة وهو يؤكد هنا ما قاله في مرة سابقة جاء فيها «...وخمدت الشرارة النبهانية، إلا أنها بقيت وميضاً تحت الرماد»(25).

وطبيعي إذ يكون شرر، فإنما هو سليمان بن سليمان بن مظفر وقد رأينا طموحه وعناده و «ثوراته»، وليس سهلاً عليه أن يستسلم ويقطع الأمل وترهبه الإمامة وهو يعلم ما وراءه من أنصار تضرروا بالتغريق، وإن في أنصار الإمامة من يمكن أن يخشى العواقب، وإن الإمامة نفسها يمكن أن تضعف، وقد بدأت تضعف بالفعل. وما عزل ـ أو اعتزال ـ محمد بن سليمان إلاّ مما أمكن عزوه للحال.

وها هم أولاً الأئمة معه وبعده... يتضاءلون يوماً بعد يوم حتى لا تكاد ترى لهم تاريخاً أو تعلم عنهم شيئاً ذا بال فهذا الإمام عمر الشريف أقام سنة ـ في نزوى ـ وخرج إلى بهلا (بهلى)، فلما خرج من نزوى بايع أهل نزوى إماماً بعده فقد عادوا إلى محمد بن سليمان ثانية، ثم ـ ولا ندري كم مكث محمد بن سليمان هذه المرة

ـ بايعوا من بعده لأحمد بن عمر بن محمد (...) البهلوي ثم مات وقبره بنزوى ثم بايعوا لأبي الحسن بن عبد السلام النزوي[26].

وأقل ما تدل هذه الحال عليه هو اضطراب الإمامة وارتباكها، وتشتت الرأي لدى أنصارها وتغلغل الفوضى بينهم وقد يضاف إلى ذلك صراع بين نزوى وبهلى... وتتحول هذه الأحوال ـ من ثمَّ ـ لمصلحة المتربصين بالإمامة، ولم يكن في البلاد متربص أقوى من آل نبهان أو غير آل نبهان، ولم يكن في النباهنة أقوى و «أعند» من سليمان بن سليمان بن مظفر. وها هو ذا لا يدع فرصة يستتب بها أمر الإمام الجديد (أبي الحسن بن عبد السلام النزوي) فما كادت تمضي «سنة واحدة» بل «دون السنة» حتى «خرج عليه»[27].

ويعود الشيخ السيابي ثالثة إلى «الوميض النبهاني» فيقول ـ ضمن منطلقه الديني: «هنا ـ عند خروج سليمان على أبي الحسن بن عبد السلام ـ يتبين ما توخيناه من عزل الإمام محمد بن سليمان وعمر الشريف ومن بعدهما، فإن الوميض النبهاني يلمع تحت الرماد باتقاد، وله من أهل البغي أعضاد، ومن الجهلة والعوام أنصار وأجناد، ولم يبينوا عنه شيئاً»[28].

ويحاول السيابي أن يزيد في شرح الحال فلم يكن لديه أكثر من أن «الذي يفهم من الأحوال أن السلطان عادت له قوة طرد بها ابن عبد السلام. وتولى الأمر واستأسد. ولم تقم لابن عبد السلام قائمة».

وكان من أنصار سليمان في هذه المرة بنو رواحة كما كانوا في المرة السابقة.

ولم يرد تاريخ لعودة القوة إلى السلطان أو لثورته على الإمام ابن عبد السلام، ولكن «تسارع» توالي الأئمة بعد موت عمر بن الخطاب ومنذ بيعة محمد بن سليمان سنة 894 .. هذا التسارع يمكن أن يجعلنا نقرب مدة هؤلاء الأئمة كلهم (خمستهم) بنحو من خمس سنوات ونجعل «ثورة» سليمان حوالي عام 900 .

ونجهل ما كان من أمر سليمان سلطاناً بعد «ثورته» فعلاً، ومدته وأقصى ما لدينا ما قاله الشيخ نور الدين السالمي: «...بايعوا لأبي الحسن بن عبد السلام النزوي. وأقام دون السنة وخرج عليه سليمان بن سليمان النبهاني ـ وهو صاحب الديوان الغزلي الحماسي أنبأ فيه عن فصاحته وأبان فيه عن بلاغته (...) وبقي سليمان بن سليمان أياماً ملكاً بالقهر والجبرية متغلباً على من تحته بالسلطة والقهر ينسب إليه من الأفعال ما ليس بالجميل . ولم تطل أيامه...»[29] وزاد السيابي أنه «لم يعتبر بالحال الذي صار عليه، ولم يتعظ بما وقع من الإمام عمر بن الخطاب»[30] من أمر غلبته وأمر «التفريق».

وإذا لم يكن لدينا ما ينفي هذه الأحكام، فليس لدينا ما يثبت العكس...

وتزيد المصادر - وكلها دينية إمامية - في سوء سيرة سليمان بن سليمان وفسادها أو فساده حين تروي عنه صورة من أبشع الصور للفساد والحماقة والنزق:

«إن سليمان بن سليمان هجم على امرأة تغسل بفلج الغنتق، فخرجت من الفلج هاربة عنه عريانة. فجعل يعدو في أثرها حتى وصل حارة الوادي فرآها محمد بن إسماعيل، فخرج إليه وقبضه عنها وصرعه على الأرض حتى مضت المرأة ودخلت العقر فخلى سبيله. فعند ذلك فرح به المسلمون لما رأوا من قوته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فنصبوه إماماً وذلك سنة ست وتسعمائة»[31] - ونسبة محمد بن اسماعيل: الحاضري . وهو رجل من قضاعة بن مالك بن حمير...

أتصح هذه الرواية؟ ليس لدينا من الأخبار ما ينفيها حتى حين يشك بها المنطق أو يرفضها. ولا تجري أمور التاريخ كلها على المنطق. ولا مفر - بعد ذلك - لمن يريد أن يستقصي سيرة سليمان بن سليمان بالمتيسر من الأخبار إلا أن يرويها دون تعليق بانتظار ما يستثير المناقشة من بطون كتب التاريخ.

ويعود السؤال عما آل إليه أمر سليمان بن سليمان وأمر النباهنة وأعوانهم معه؟ ويقرب الجواب ما كان من شجاعة محمد بن اسماعيل - «والإمامة من شرطها الشجاعة، فلا إمامة لجبان»[32] ويأتي - مع ذلك - يقظة أنصار الإمامة وتنبههم لحالهم وما يجب أن يكونوا عليه في مواجهة السلطان.

وهذا ما حصل ، ثم كان أن «ظهر أمر المسلمين وأذل الله الجبابرة المعاندين»[33].

قال الشيخ نور الدين السالمي إن الإمام محمد بن اسماعيل الحاضري «قد حكم في أموال بني رواحة الداخلين في الفتنة يوم قادوا سليمان بن سليمان ويوم قادوا مظفر بن سليمان. حكم بأن الذي اجترحه سليمان وولده صار ضمانة على من قادهم. وذلك الحكم في يوم الأحد لثلاث ليال خلون من شهر شعبان سنة تسع وتسعمائة [909] فأثبت العلماء حكمه (...)...»[34] - أي بعد ثلاث سنوات من بيعته إماماً.

وقال الشيخ سالم السيابي: «لما تمكن قدم إمامة محمد بن اسماعيل نظر في أحوال الجبابرة وأعمالهم. وكان قد عرف عمل الإمام عمر بن الخطاب (...)»[35]. بالتغريق السابق. وإذا كان الإمام عمر بن الخطاب نظر إلى الجبابرة من نبهان ولم ينظر إلى من كانوا لهم أعواناً، فإن الإمام محمد بن اسماعيل الحاضري «التفت (...) إلى الأعوان، ومن بينهم بنو رواحة» فجاء يتمم عملية عمر بن الخطاب

«فيغرق أموال بني رواحة» فقد «قبضها (...) وأضافها إلى بيت المال واستغلها طيلة إمامته، وكذا الأئمة بعده»[36]. وهكذا شمل التغريق أموال النباهنة وأموال بني رواحة.

وتقف الأخبار عن سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني عند هذا التغريق الثاني الذي وقع في شعبان 909 . ولم نعد نعرف أمراً في كتب التاريخ سواها، كما لا نعرف نهايته وتاريخ وفاته.

«أقصى ما لدينا من تاريخ وفاته ما ذكره الزركلي : «نحو910 هـ/ نحوه 1505 م»[37] ومصدره في التعريف به ـ مصدر وحيد ـ هو «تحفة الأعيان 1 / 306 ـ 308» وليس في «التحفة» ما ينص على تاريخ الوفاة أو يقربها. وكان آخر ما رأيناه فيها خبر التغريق الثاني في شعبان 909 .

وما ذكرته مقدمة ديوان سليمان بن سليمان: «وتوفي سنة (915 هـ) (1510 م)» ولم تستند المقدمة التي وقعها «سليمان خلف الخروصي» إلى أي مصدر.

ويبدو أن النباهنة بعد الهزيمة التي حلت بسلمان بن سليمان وبعد التغريق خمدت نارهم وزادت فترتهم عما كانت عليه قبل «هبّات» سليمان حتى نسي ذكرهم... دون أن يفقدوا الأمل في جولة جديدة. وقد تحقق لهم هذا الأمل لدى خروج سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان على الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل الحاضري فتملك نزوى سنة 964 .

إذا قصر التاريخ في تاريخ سليمان بن سليمان فقد يهيىء لنا ديوانه ما لم يحفظه التاريخ . قد .

المصادر

1 ـ ينظر التمهيد ـ أعلاه.

2 ـ تحفة الأعيان 1/ 303 ـ 304 .

3 ـ ديوان النبهاني ص ب ، والمقدمة بتوقيع سليمان خلف الخروصي .

4 ـ عُمان عبر التاريخ 3/ 119 .

5 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 104 .

6 ـ تاريخ عُمان المقتبس ص 73 .

7 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 104 .

8 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 106 .

9 ـ نفسه 3/ 106 .

10 ـ نفسه 3 / 106 .

11 ـ تحفة الأعيان.

12 ـ لعل الأصل، استمرأوا.

13 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 107 .

14 ـ تاريخ عُمان المقتبس 72، قصص وأخبار 83، تاريخ أهل عُمان 101، تحفة الأعيان 1/ 321.

15 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 107 «...مبايعة عمر بن الخطاب... وكان السلطانُ إذ ذاك سليمان بن سليمان صاحب الديوان الحماسي».

16 ـ تحفة الأعيان 1 / 321 .

17 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 107 . وجاء في كتاب «قصص وأخبار» ص 84 «لما نُصب [عمر بن الخطاب إماماً] أقام سنة، وخرج عليه سليمان بن سليمان فانكسر عمر. وعسكر بجهة من وادي سمايل، لعله وادي بني رواحة».

18 ـ التحفة 321 . وقد رددت «التغريق» على: «التفريق» .

19 ـ عُمان عبر التاريخ 3/ 107 ـ 108 .

20 ـ نفسه 109 .

21 ـ تنظر تفصيلات «التغريق» في تاريخ عُمان المقتبس 72 ـ 73، قصص وأخبار 83 ـ 84، تحفة الأعيان 1 / 321 ـ 325، عُمان عبر التاريخ 3/ 110 ـ 115 .

ولم يكن مستغرباً على الحكم النبهاني قيام أخوين (أو ثلاثة) بالملك في وقت واحد (يتقاسمون النفوذ...) وسنرى في الفصل القابل ما يجري بن الأخوين: سليمان وحسام .

22 ـ تحفة الأعيان 1 / 326 .

23 ـ تحفة الأعيان 1/ 325 ـ 326 . وينظر تاريخ عُمان المقتبس 73، قصص وأخبار 84، تاريخ أهل عُمان 101 .

24 ـ عُمان عبر العصور 3 / 116 .

25 ـ عُمان عبر العصور 3 / 109 .

26 ـ ينظر تاريخ عُمان المقتبس 73 ، قصص وأخبار 84 ، تاريخ أهل عُمان 101، تحفة الأعيان 1 / 326، عُمان عبر العصور 3 / 115 ـ 118 . وتضطرب المصادر في نسب أحمد بن عمر بن محمد، فيرد على : الرمجي أو الرنجي أو الزنجي ولا بد من أن يكون مرد ذلك تصحيف النساخ.

27 ـ نفسها وجاء في كتاب «الفتح المبين في سيرة السادة آلبوسعيديين» تأليف حميد بن محمد بن رزيق بن بخيت (1274 هـ) طـ 2، تحقيق عبد المنعم عامر و د. محمد مرسي عبدالله، القاهرة، آمون للتجليد والطباعة 1404 / 1984 (عُمان ـ وزارة التراث القومي والثقافة) 258 ـ 259: «عقد لأبي الحسن بن عبد السلام، وأقام في الإمامة دون سنة / فخرج عليه سليمان بن سليمان بن مظفر، فمات أبو الحسن عند خروج سليمان بن سليمان عليه».

28 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 119 .

29 ـ تحفة الأعيان 1/ 326 ـ 328 .

30 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 119 .

31 ـ تاريخ عُمان المقتبس 73 ـ 74، تاريخ أهل عُمان 101، تحفة الأعيان 1/ 328 وينظر قصص وأخبار 84 ـ 85، والأصل واحد، وعُمان عبر التاريخ 3/ 120 . وأورد ابن رزيق في «الفتح المبين...» 259 رواية توحي بأن سليمان بن سليمان كان على خلل نفسي أو عصبي وكأنه في طريقه إلى ضرب من الجنون، قال: «...إن سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني لما كثر فساده في البلاد، وجوره في العباد، لم يزل يسمع هاتفاً لا يرى شخصه إذا خلا في غرفته التي هي بحصن بهلا، وإذا تخلى من خاصته والعامة، يقول له: تمتعوا يا بني نبهان أياماً قليلة، فإن ملككم سريع الزوال ، فتأهبوا للارتحال أو مثل ما قال ذلك الهاتف له من المقال . فارتاع سليمان من ذلك وكثر حزنه، فقال له بعض خاصته الفساق، أراك أيها السلطان في ضيق، فأوضح لي عن الحقيقة في هذه الطريقة [لعلها في هذه الطريق استقامة للسجع].

فلما أخبره بما يسمعه من الهاتف قال له: إنها لوساوس، يوحي بها الشيطان على الجنان [؟]، فإذا أردت أن يذهب هذا الوسواس عنك، امض على حين غفلة من أهل بهلا إلى نزوى، فإن فيها ما يشتهيها قلبك وتقر به عينك. وفي حال ما قاله له صاحبه ذلك المقال ركب هو وصاحبه ناقتيهما إلى نزوى، فدخلاها ليلاً، فأقاما في بيت السلطنة الذي بناه فيها سليمان بن سليمان له خاصة.

فلما كان من صباح تلك الليلة، وقت صيام النهار، شهد سليمان امرأة تسعى إلى فلج الغنتق، فترك صاحبه ومضى إليها، في إثرها، وهي لا تشعر به، فهجم عليها قبل أن تخلع ثيابها للغسل، فهربت منه، فتبعها حتى إذا كانا دون حارة الوادي، وكان قد خرج محمد بن اسماعيل، فاستجارت به المرأة، وسألته أن يمنعه عنها. فقبض محمد بن اسماعيل على سليمان بن سليمان المذكور وصرعه على الأرض ثم جرَّد خنجره على حنجرته فذبحه بها، ودخلت المرأة الحجرة [الحجر]، ودخل هو حلبة العقر. فأخبر رجالها الخبر، فسرهم ما فعله في سليمان، وسر أهل الحواير [الحارات] وغيرهم ما فعله محمد في الفاسق الجائر، فنصبوه إماماً...».

ويبدو على الرواية النهج القصصي في السرد وتوحي بالتزيد فضلاً عما هو غير صحيح ما جاء فيها من ذبح محمد بن اسماعيل لسليمان بن سليمان. وقد سبق أن كذّب هذه النهاية الشيخ السيابي في «عُمان عبر التاريخ...» 3 / 120 كما صحح لابن رزيق قوله عن محمد بن إسماعيل: «كان من أهل أزكى» بأن محمد بن إسماعيل «يسكن الحارة الغربية من سكة باب مرار» يقصد ـ من نزوى كما في تحفة الأعيان 1 / 328 .

32 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 120 .

33 ـ تحفة الأعيان 1 / 328 .

34 ـ تحفة الأعيان 1 / 328 ـ 329 .

35 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 121 .

36 ـ عُمان عبر التاريخ 3 / 122 .

37 ـ الأعلام للزركلي/ ط 4 / بيروت، دار العلم للملايين 1979، 3/ 126 ومصدره تحفة الأعيان 1/ 306 ـ 308 .

2 ـ حياته في ديوانه

حفظ الديوان[1] أشياء من حياة صاحبه، وليس طبيعياً أن يحفظ الكثير الكثير، لأن الشعر ـ في أساسه غير التاريخ، وإنه يسجل، إذ يسجل، صفحات روحية أو وجدانية ـ إن صح التعبير ـ وتمتد هذه الوجدانية لتلوّن ما هو وقائع تاريخية: تشير على طالب التاريخ منها إلى أن ينظر إليها بهذا المنظار، وأن يبقي هذا المنظار معه في صغيرها وكبيرها فضلاً عن أنها تؤرخ طرفاً واحداً هو المتكلم أي الشاعر. وزاد في الأمر أن الأحداث ـ ولا سيما الخاصة ـ التي عرضها الشعر ـ أي الشاعر ـ لم تعرضها كتب التاريخ . وفي هذه الظاهرة سلب وإيجاب، أما السلب ـ وقد عرفناه ـ فهو في أحادية المصدر وما احتمل هذا المصدر من انحياز صاحبه لنفسه؛ وأما الإيجاب فإنها تزود الباحثين ـ وعلى أي حال ـ مادة لا يجدونها في غير الديوان، وشيء خير من لا شيء، بانتظار ما يجدّ من مخطوطات ونشر مخطوطات تؤيد أو تفند.

لا بد للباحث في الشعر عن التاريخ من هذا المنطلق، ولا بد له ـ بعد ذلك ـ من استصفاء الأحداث التي تدل على صدق في نفسها ونفس راويها، ويدخل في دفع العنصر الخطابي عنها لتبقى مجردة أو كالمجردة...

وما كنا لنستعين بالديوان، أو لعرض ما جاء في الديوان مستقلاً كما هو، لو عني التاريخ بسليمان بن سليمان النبهاني أميراً وسلطاناً وشاعراً ، وجاء فيه من الأخبار ما يسد الثغرات . إنَّنا ـ هنا ـ نسد ثغرات التاريخ ـ قدر الإمكان ـ بالشعر ، على العكس مما كان ينتظر لو جاء من التاريخ شيء كثير وبلهجة الاعتدال والمنطق...

الخلاصة، وقد يكون هذا من العجيب، ان الذي ذكره الشاعر من أحداث حياته لم يقرب منها التاريخ، وان الذي ذكره التاريخ لم يقرب منه الشاعر ـ ومن

هنا تأتي محاولة البحث عن التكامل - في حدود الممكن، وفي هذه الحدود فوائد لا شك فيها.

نعرف عن عُمان - من خارج الديوان ومن داخله - العلم والأدب والكتب. ونعرف عن الشاعر أنه من بيت الملك والسلطنة. ذهب التاريخ العُماني - أولاً - إلى تعظيم شأن الأئمة والفقهاء وما دلت مؤلفاتهم على العلم والأدب والكتب، وذهب - ثانياً - إلى الاستهانة بشأن النباهنة فهم أهل دنيا، وعداء للأئمة، وأهل ترف وفساد... ولا نريد أن ننسب هذا إلى المبالغة، ولكننا لا نريد أن يفهم بُعد النباهنة عن العلم والأدب والكتب بعداً تاماً، ونريد - مستدلين في الأقل - بديوان واحد منهم، ولد ونشأ فيهم وهم في حالة ضعف وعهد فتور - أنهم لم يكونوا بعيدين عما نسميه اليوم مصادر الثقافة، ولم تكن قصورهم بغير خزائن للكتب تحتوي على الأساس من أمات التراث العربي، وفي رأس هذا التراث كتب التاريخ والأدب، وفي رأس كتب الأدب الدواوين.

وحين نقول هذا، نقول إنه لا بد من أن يفيد الناشىء في ظل هذه القصور من كنوز هذه الخزانات. ولم يأت قولنا هذا جزافاً وإنما هو ثمرة علمية لقراءة ديوان سليمان بن سليمان النبهاني تدل على عمق ما أفاده هذا الشاب، الأمير، المتأدب، الطامح إلى الشعر لدى قراءاته وإعجابه بما يقرأ، وحفظه بما يعجب به، والاستفادة من المحفوظ لدى الحديث والنظم.

ويمكن أن نحدد - في ضوء هذا - كتباً بأعيانها أو شعراء بأعيانهم نكتفي منهم - هنا - بامرىء القيس وطرفة وعمر بن أبي ربيعة وابن دريد والبحتري والمتنبي.

لم يشر الديوان إلى تاريخ لميلاد الشاعر، وإذا كنا نتمنى ذلك تمنياً فإننا نعرف أن ذلك لا يدخل في مهمة الشعر[2]. وإذا كان «التاريخ» يشير إلى أنه ولد في وقت من فتور السلطان النبهاني بإزاء السلطان الإمامي، وبخمود السلطان النبهاني وكأنه غير موجود حتى لو ورد هنا وهناك - وروداً عابراً - اسم سليمان أبو الشاعر، ومظفر جد الشاعر. ولا نريد أن نكذّب التاريخ، ولكننا نستطيع أن نستنبط أمرين - يعين عليهما الديوان - الأول أن الناشىء في بيت السلطنة هذه لا يني يسمع مجد النباهنة الأول، ويغتذي المطالبة بالحق واستعادة المجد فيحتويه الطموح بانتظار الفرصة، أي فرصة.

والثاني أن يتهيأ لهذا الناشىء الوقت - المناسب المسامح - للقراءة والإعجاب والحفظ، فهو طويل الإقامة في «قصره»، وفي القصر كتب مما يشاء ويحب، فليقرأ... ويحفظ، ويستعيد... ويتأثر، ويختزن حصيلة من المفردات يعينه على

تركيبها ما فقه قصداً ـ وبغير قصد ـ من تركيبات خوالد التراث.

وحين تأتي القراءة حباً وميلاً... ونزهة فإن الذي يثبت فيها في النفس ما هو أقرب إلى النفس وأدخل في مساربها. وفي النفس أمران: السلطنة، ومع السلطنة الفخر والشباب ،ومع الشباب «الفراغ والجدة»... وهكذا نفذ المتنبي إلى النفس يغذي طموحها، ونفذ امرؤ القيس وطرفة وعمر بن أبي ربيعة يملأون فراغها... ولا بأس ـ مع ذلك ـ الشعر الجاهلي كله يتصدره زهير ولبيد ليريه أن ما حوله وما هو فيه من المرأة والطلل والناقة والفرس والصيد وبقر الوحش أجزاء لا تتجزأ من القصيدة العربية وتدخل هذه الأجزاء في بناء القصيدة ومسيرتها بما في ذلك: «دع ذا».. و«غريب» المفردات .

أما ابن دريد، في حكمه ونصائحه خاصة ـ فهو من «العائلة» «عُماني ابن عُماني». ومع ابن دريد ما هو حوله من شعر يعاصره وشعراء يعاصرونه بمعانيهم ولغتهم تكراراً وتقليداً وصناعة وارفة ولكنهم يبدون مثلاً في عين الناشىء.

وأحس في نفسه ميلاً إلى النظم، فلينظم، ليبدأ، وتلك هي القاعدة، وشرع يترزم[3]... وكأنه ينطلق من شعر يعاصره تزيد فيه البدايات ركّة وتكلفاً.

وله قصائد ومقطوعات أخرى في غضون الديون يمكن لدارس أن يعيدها إلى عهد «القرزمة» وأيام التدريب لركة فيها وخفاء فيما كان يجب أن يظهر، ومجانبة للأوزان أحياناً. ومن ذلك المقطوعة التي مطلعها :

قف «ببوادي العقر» ثم سل   عن ذوات الأعين النجلِ
عن أصيحابي وما فعلوا   يوم زمّت للنوى إبْلي
فعسى ألقى لهم خبراً   في رسوم الدار والطلل[4]

ومنه القصيدة التي مطلعها[5]:

أرقت لسجع البكا والحمام   وحرمت طيب الكرى في المنام

وقد جاء في حاشيتها: «في النسخة الدغارية كتب الناسخ تحت هذه القصيدة «إنها مغلوطة كلها والله أعلم» والصحيح أن من أبياتها ما هو غير موزون ولا واضح المعنى».

والقصيدة التي مطلعها[6]:

يا أيها الغادي على   وجناء تامكةِ السّنام

والمقطوعة ذات الأبيات الأربعة:

كـم غـداة الـلّـقـا . مـن طـفـلـة غـفـلـه

قال المحقق : «هذه القطعة ليس لها في أبياتها الأربعة وزن ثابت...».

وإذا أغفل الديوان تاريخ القصائد، واتبع طريق القوافي في التسلسل، فزاد ذلك أمر الباحث عن «البدايات» صعوبة، فإنه «أخطأ» مرة فقال: «وقال...في البزاة والصيد والقنص في أيام صباه»(7):

أطويت من دون الفتاة جناحا إذ أزمعتْ عند الغداة رواحا
كلا ورب الراقصات إلى مِنى والساجدين عشية وصباحا
ما إن جنحت لنسوةٍ عن حبها يوماً ولا جرّت عليَّ جُناحا
لو كنتُ ألقى للتبصر منهجاً لم أعص فيها المشفقَ النصاحا
بأبي ظعائن من ربيعة عامرٍ يقرضن نعْفَى جردةٍ فرُماحا

* * *

جاد الرباب من «الرباب» معاهداً عريت وحالفَ رسمها الأرواحا
بيضاء يصرعها الصبا فيميدها مني النزيف سُقي المُدامَ الراحا
ولـع الأيانق والغراب ببينها والبرقُ إذ نهضَ العِشاء فلاحا
رضّاً لفيكَ لِمَ انتعبت مبكراً تدعو الفريق إلى الفراق صياحا
ويلي عليك أقال ربُّك قل لهم إن الرحيل وإن كرهتَ رواحا

* * *

إن كان سِرُّكِ يا ربابُ محرماً فالله صير لثمَ فيك مباحا

* * *

ولقد غدوتُ مسوِّما شوذانقاً بـجـبـال آيـهـة بـه ومـراحـا

* * *

فترى الغطاطَ لدى الغطاطِ مخافة ينجونَ منه ولم يجدن براحا

* * *

فأصاب ثمَّ ثمانيا وثمانيا وثمانيا أُثخنّ منه جِراحا
ثم انثنيت إلى المُدام منادماً عِينا كآرام الصريم ملاحا

* * *

وأنا ابن مَن ملك الملوك ولم يدع حسباً لبابا للملوك صُراحا
وأخي الذي خضعت له أسد الثرى وعنت إليه شراسة وكفاحا

وأنا مَحَشُّ الحرب إن هي أخمدت والموتُ إن بكرَ الصباحُ صباحا
ما سُدَّ بابُ صنيعة إلا غدت كفي لأبواب الغنى مفتاحا

وللقارىء أو الدارس من القصيدة فائدتان: للتاريخ السياسي، ولتاريخ شعر الشاعر. فمن التاريخ السياسي يعلم أن «الفتى» في بحبوحة من العيش فهو بين نساء وخمر وصيد، ولديه من المال ما يفيض به كرماً.

ولكن ما مكان أُسرته آنذاك من الحكم؟ وأكبر الظن أنهم كانوا بعيدين ـ أو مبعدين ـ عنه بدليل قوله:

أرباب إن الدَّهر أهلك حميراً ولقد يكون على الهموم مُراحا
والدهرُ يعقبُ بؤسَه بنعيمه ويعيد أفراحَ الورى أتراحا

فهذه لهجة من يحتجن حزناً، ومن ينتظر نعيم الملك وهو في بؤس منه.

ويزيد ما يوحي بأن ملك أبيه ـ على عظمة الأب ، صار فعلاً ماضياً، ومثله ملك أخيه:

وأنا ابن مَنْ ملك الملوك ولم يدعْ حسباً لباباً للملوك صُراحا
وأنا الذي بَهَرَ الملوكَ أبوةً وفتوةً ومروءة وسماحا
وأخي الذي خضعت له أسد الشرى وعنت إليه شراسة وكفاحا

ونعرف أن أباه هو سليمان بن مظفر، فمن أخوه؟ من أخوه المقصود فقد يكون له «أخوة» مر معنا ـ في التاريخ ـ منهم حسام.

هذا ما يقال بشأن التاريخ السياسي ، أما ما توحيه القصيدة لمؤرخ شعر الشاعر فالبداية، وشعر الصبا ـ كما نص الديوان ـ ولا يحتاج ذلك إلى برهان حتى لو لم ينص الديوان. ويكفي قارئاً ما يرى من تكلف وركة... ومحاولة النظم دون دلالة على تجربة معينة لأن «رباب» من عرائس الشعر ، ومن صويحبات عمر بن أبي ربيعة في الأقل ، أما إذا كانت رمزاً لفتاة بعينها فإن الشعر لم يدل على صحة هذه الفتاة رمزاً أو حقيقة.

وتوحي ـ كذلك ـ أنه متأثر ـ فيها ـ بعصره، ومن حوله من شعراء ليس فيهم الشاعر وإنما هم نظّامون رصّافون ولا يهم بعد ذلك ما يكتنف قولهم من ركة، يزيدها ظهوراً تكلف الجناس ، وما أكثره في القصيدة!

وحين تقع قصيدة ترجع إلى عهد الصبا ـ في خمسة وخمسين بيتاً فإن ذلك يعني أن الصبي ـ الفتى قد قطع ـ قبلها ـ في التجريب ، وبما هو أقصر منها طولاً، وأكثر تكلفاً... ولكن يكفيه ـ الآن ـ من هذه القصيدة دلالة على خطوة ثانية ولمحاً

إلى ما ستكون عليه أغراض الشاعر مستمدة من حياته الخاصة.

ويسير في الطريق .

ولا أحسن ـ لدى التدريب ـ من المعارضة، أو متابعة شاعر مشهور في قصيدة له، زد على أن المعارضة من فنون العصر، لا حرج فيها إن لم تكن مدعاة فخر... فحاول وجرب وكرر المحاولة.

ومن القريبين إليه نسباً وهو اليمني القحطاني وفخراً وحماسة وهو الشجاع: عمرو بن معد يكرب الزبيدي وقصيدته:

ليس الجمال بمئزرٍ	فاعلمْ وإنْ رُدّيتَ بُردا

فلينظم معارضاً:

صرمتَ بالأً عن سكيـ	نةَ هاجراً وسلوت هندا
ولويت عن أم الربا	ب سوالفا بدّلت صدا
أعددتُ للأضياف دهـ	ماً دقّقت لحماً وثردا
عضبا متى تضرب به	فيقل ليكفُفْ قدك قدا

* * *

قد أرسل العربي أمثا	لاً يحلن لديَّ عِقداً
«ليس الجمال بمئزرٍ	فاعلم وإن رُديت بردا
إن الجمال مكارم	ومآثر أورثن مجدا»[8]

والركة بادية على القصيدة و «حليب» القرزمة تسيل على شفتيها.

ولا نطيل فالأمر طبيعي، ولا بد من أن يزيد محصوله في القراءة والحفظ واللغة، ويزيد قربه من فحول الشعراء العرب بدءاً بالجاهليين... ثم يدفعه التجريب خطوة من الثقة فيخرج عن عصره ليعود ـ والعود أحمد ـ إلى الأصل. فهذا ما يمكن أن يستنبطه باحث عن البدايات حين يقع على قصائد تدل على ذلك، ويأتي مع مواد الاستنباط ما عرف «بعرائس الشعر» مقترناً بمواقع من الجزيرة العربية (وليس من عُمان) صارت «عرائس» كذلك. فها هي ذي «خولة» و«عالج»:

عرفت بعالج فببطن قوّ	رسوماً مثل أسطار الكتاب
لخولة وهي بهكنة شموع	يؤود غصنها خمر الشباب
فدع ما لا انتفاعَ به لصبٍ	يغرر في ادكار وانتحاب
وقل يا ربَّ خاوية نآةٍ	كظهر الترس تشرق بالسرابِ

قطعت باطهبِ العُثنون ناجٍ نـحيـب مـن أنـاعيـمٍ نجـابِ

* * *

وقد علمت ملوك الأرض أني مقر الفخر والحسب اللباب[9]

وفي هذه الأبيات نجد مواقع من أطلال امرىء القيس، وخولة طرفة البهكنة، «ودع» زهير، وبيداء الجاهليين كلهم وفي البيداء الناقة، وتجد «وقد علم» عمرو بن كلثوم. ولو سرت لمحت عنترة في «وسيفي فيه حاجات الرقاب» وبين هذا وهذا شيء من ابن دريد وأشياء من المتنبي...

وإذا كان في القصيدة ما يُمكن أن يبعدها عن القرزمة، فإن التقليد ـ المباشر ـ يقلل من هذا البعد.

وما قيل فيها، يمكن أن يقال في قصيدته:

أمرتبع أم أنت ليس بمنزلٍ أوَشْمٌ بزند أم وحيٌّ بجندل
خليلي عوجا نمنح الربع ساعةً تحية حازٍ بالوفا غيرَ مؤتلِ[10]

فهي «على البحر والرويّ لقصيدة امرىء القيس : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» ـ وكانت عروس الشعر فيها ـ هنا ـ : أسماء.

ولهذه أمثال منها ما يذكر بالنابغة ومنها بغيره معارضة أو تأثراً ملحوظاً... يؤيد التقليد فيه ضمور شخصية الناظم وتردد عرائس الشعر وعرائس المواقع.

وجل غرضنا من هذه الوقفة بيان ما كان الشاعر يشغل به الفصل الأول من حياته، وإنه حين يجد في الشعر سداً لفراغ، فإنه يجد فيه منفذاً يطمئن وجوده بما يبثه فيه من فخر بالأجداد والآباء، وما يقيمه فيه من فخر وأمل وطموح ـ هذا غير ما يدلنا عليه من فنون اللهو وفيها المرأة والصيد والخمر.

ويبقى لدارس الشعر أن ينتظر ما تنبجس عنه هذه «البدايات» مما يمكن أن يكون أهلاً للدراسة.

وستنبلج الملاحظة عن التقاء ـ أو امتزاج الخطوتين الآتيتين في الشعر وأحداث السلطنة.

وها هو ذا يجمع ناساً من قومه حوله وينهض ثائراً وهو في أوج شبابه فيسود:

نهضتُ بعبء الملك إذ أنا ناشىءٌ وشدت بيوت المجد فوق النعائم[11]

وكلمة «ناشيء» غير محدودة ولذا فسّرناها بأوج الشباب لأنه من غير الممكن للظرف الذي كان فيه أن ينهض ويثور ويسود وهو ناشيء ناشيء. وأوج الشباب

التي اقترحناها تتعدى العشرين، ولنا سند في ذلك قوله:

هرقتُ ولم أبلغ ثلاثين حجةً نجيع الأعادي في ظلام القساطل[12]

وها هو ذا سلطان يتمكن من «نزوى» ـ أولاً ـ وله سمائل كذلك، ويتخذها حاضرة له. وهو لا-يحدد لنا «الأعادي» أو بمعنى أدق لم يذكر الأئمة بالنص، ولم يذكر اسم عمر بن الخطاب بالاسم ويبقى ـ بعد ذلك ـ علمان هما «عُمان» على وجه العموم ، وأخوه «حسام» وأتباعه على وجه الخصوص . ولا نعرف توالي الأحداث، ولكن المنطق يرجع البدء بحرب «عُمان» (وربما، ربما، كان أخوه حسام آنذاك معه، وإلى جواره، يسنده...) وإن ترتبط عُمان ـ أكثر ما ترتبط ـ بالأئمة والفقهاء من أهل العقيدة والدين.

والمنطق ـ مرة ثانية ـ أن يعاجله أعداؤه قبل أن يستقر حكمه ويطمئن أمره ويستشرى شرّه:

«وعُمان إذ عَتَتْ واعصوصبت قطعت كِبراً وجهلاً وحرِقْ
وأتت تسحب مُرّانَ القنا فوق جُردٍ سبَّقٍ ضمْر لُحَقْ
في ألوف سبعةٍ لو زاحمت ركن «رضوى» انهدَّ منه ما شَهَق

* * *

فتقدمتُ وتحتي سابقٌ لو يجاري لامع البرق سبق
وبكفّي مَشرفيّ باترٌ مرهف الحدين ما مسَّ فلق
مستبداً لم أخف عاقبةً ليس خوّاضُ الوغى كالمرتفق
حين وارى عثيرُ الخيل السما واستمر الطعن واشتد الفلق
ضارباً في جمعهم لم يغشني في التقاء الجمع طيشٌ ونزقْ
فابذعرّوا واشمعلوا هرباً رهبةً من حد سيفي وسبق
كجراد عصب الريح به فسعيدُ الحظ فيهم من سبق
فتجاوزت بعفوٍ عنهم وإذا ما ملك الحر عَتَقْ»[13]

والكلام ـ أقول الكلام لأن الشعر فيه كالمعدوم ـ واضح فهو تقرير عن معركة يكتبه ملك خاض المعركة وانتصر وعفا.

ولم يسمّ المعركة.

ولكنه يتحدث في مكان آخر عن «يوم الظفر»:

.. ويوم الظَّفْر إذ جاءت عُمان تعالى فوق سابحة عرابِ
كتائب تُشرقُ الخضراء نقعا وتتركُ كل جيش في تباب

لقيتُهم بعزم غير نابٍ   وزندٍ في الوقائع غير كابِ

* * *

على ذي مَيعةٍ عبلٍ جوادٍ   صريحي الأرومة والنصاب
وفي يمناي أبيض مشرفيٌّ   طليقُ الحدِ ماضٍ كالشهاب
سقيتهم به كأس المنايا   ولَلأشقينَ أجدر بالعقاب
وأبتُ وقد تفلل شفرتاهُ   وقد خضِبت بنجيعهم ثيابي(14)

ويتكرر «يوم الظفر» في قصيدة أخرى بتفصيلات جديدة فقد كان من الشدة بحيث فر عن سليمان أنصاره وتركوه فرداً يجابه الأعداء:

ويوم الظفر وهو أشد يومٍ   به عُرف الكرام من اللئام
وقد جاءت عُمان تقود جيشاً   إلى حربي كملتطم اللُهام
وأحجمت الفوارسُ من نزارٍ   وقحطانٍ وهم أسد الضِرام
فجئت مجرّداً إذ ذاك سيفي   أنادي أين ذو البأس المحامي
فلما عاين الأعداء شخصي   وقد دبَّ الردى بشبا حسامي
على نهد أقبَّ أزجَّ شهمٍ   ظليمي الشِظا ملء الحزام
رأوا موتاً يلوح بكف موتٍ   على قَدَرٍ أتيح على الأنام
ولما لم تجد إلا حِماما   أو الهربَ الأمرَّ من الحِمام
تولت تتقي بالفرِّ بأسي   كما فرَّت مذعَّرةُ النَّعام
ولما آض عز القوم ذُلا   وأصلد زندُهم بعد اضطرام
عفوت وكان مني العفو خلقاً   وذلك خُلقُ مفضال همام(15)

ويوم الظفر هذا يوم من أيام له أخرى يعددها فيقول:

... ألا سائل الأقوام بالخيل هل نبا   حسامي أم هل قصرت حملاتي
ضربتُ جموع القوم حتى تركتها   أيادي سبا ممنوَّةً بشتاتِ
فما منهمُ إلا قتيلٌ مجندلٌ   تهادى شواه أذؤب الفلوات
وآخر لا يألو كما فرَّ فُرزلٌ   نجا بجوادٍ لات حينَ نجاة
فسلهم غداة «الحشر» يوم دهمتهم   بمجرٍ لهام باسلٍ وكماة
فلما ابذعروا والسيوف تنوشهم   تغمَّدتهم بالصفح والحسنات
«وبالعقر» قد صالقتُ «عامر» صَلقةً   تذاكرها الراوون في الندوات
وسل عن ضرابي يوم «أزكى» حاسراً   بسيفي وقد فرّت جميعُ حُماتي
و «بالميقع» المعروف طاعنت «عامراً»   لدى الطعن حتى عار متنُ قناتي

لقيتهم وحدي وقد فرَّ «مانعٌ» وأصحابه كالأتن النَّعرات
ظللتُ أذود القومَ بالرمح مستح من الله أن أمضي عن الحَفِرات
وكم وقعةٍ مشهورة قد شهدتُها يقصرُ فيها المرء عن فَعَلاتي
فلا جيش للأعداء إلا هزمتُه ولا قطرَ إلا جُستُ بالغزوات
ولو شئت كفاني وزير وخادم ولم ألق نفسي في يد الهلكات
ولكن نفسي مرةٌ ليس ترتضي سوى بيعها في الحمد والغمرات
براني ربُ العرش ذا خُنزُوانة شديداً على الأعداء ذا نقمات
أقول فلا أعيا بشيء أقوله إذا لم يفِ ذو موعدٍ بعدات
تُناطُ حياةُ الدين والعلم والتقى وعزُّ عُمانٍ كلُّها بحياتي[16]

واضح أن حروبه ليست كلها مع الأئمة وحماة الدين، فهو يحارب القبائل، ويحارب «الملوك» حتى لو لاذوا بالحصون[17]:

... فقل لأولي الحصون ألا رويداً سأمطركم غداً مطر العقاب

ويمضي في تهديده:

.. رويداً معشرَ الأملاك إني لمصحبكم وكاسات الحمامِ
ذروا سكنى الحصون وإن تعالت فغايُ بنائها للانهدام...

ولا نعرف أملاكاً (ملوكاً) في عُمان ـ آنذاك ـ غير النباهنة. وإلا فمن يقصد بالأملاك ؟ أطلاب ملك جدد؟ ممكن . ولكنه يذكر ـ في أماكن أخرى ـ أخاه، شقيقه، صنوه: «أبا ناصر حسياما» من طلاب الملك، أو الاستقلال بالملك.

وهنا يفتح للتاريخ صفحة جديدة غابت عنه، هي صفحة الصراع المسلح بين الأخوين الشقيقين ولدي سليمان بن مظفر النبهاني. وإنه ليذكره بالاسم، وبالكنية كذلك أحياناً معترفاً له بشجاعته[18].

ويبدو أن السببَ المباشر كان في «كلام» قاسٍ وجهه حسام لسليمان، على أثر نميمة، فآلمه ذلك ولكنه أبدى عقلاً ومرونة في عتاب هادىء:

قولا لصنوي ذي العُلى حُسامِ ربّ الوغى ومخجل الغمامِ
والبطلِ الدِّعيس في الصدامَ يا ابن الملوك السادة العظامَ
أجلّكَ اليوم عن الملام مهلاً لقد سفَّهتَ لي أحلامي
أوغرتَ قلبي منك بالكلام ووقعُه في القلب كالكِلام
فقف ، هداك الله، من هُمام لقد أطبتَ أنفس الخصام
ما هكذا يا أفخر الكرام جزاءُ صنو حافظ الذِّمام

وأنت عينُ الحاذق الهمام ومنبع المعروف والأنعام
لا زلتَ لي ظهراً مدى الأيام ولا دهاك الدهرُ بالحمام
فقد لقيتَ العزَّ عن ملامي ولا تطع ذا البُغض في احترامي
فأنت عضبٌ ليس بالكهام وسابقٌ لم يكبُ في قتام
مني عليك أفضل السلامَ ونبي الله أولى بالسلام[19]

إن القارىء بإزاء هذه الأبيات-وقل بإزاء هذا الموقف- يرى في سليمان بن سليمان شخصاً جديداً على خلاف تام مما رواه عنه التاريخ، وخلاف حتى ما يعكسه غالب شعره. إنه عاقل حكيم أريب، متسامح، مدار، حريص على الأخوة، معترف لأخيه بفضائل الشجاعة والهمة، داعيه إلى تدبر الحال والترفع عن سماع ما يختلقه المبغضون.

ولكن اللين لم ينفع، وكان حسام قد امتلأ غيظاً، ولعله كان ممتلئاً طموحاً. وكان الذين حوله ممتلئين حقداً وطمعاً.

ولم يبق بد من الحرب. وإذا كان لا بد، فما كان سليمان بالقاصر الذي تعوزه الشجاعة أو الذي يتسهل مع الطامعين المؤلبين. وهذه هي المعركة في «يوم الحبيل»:

ألا ليت صولةَ «يوم الحبيل» وقد كشر الموت عن نابهِ
وقد صاحت الحربُ بالمُعلمين ونادى الهياجُ بأصحابه
وقد جاش بالخيل بحر يموجُ فيرمي القرومَ بعَبّابه
وقد فرَّ عن نارها المائقونَ وكلٌ تكشف عن عابه
يشاهدني والقنا شُرَّعٌ وكلٌّ يُكنّى بألقابه

* * *

رددتُ بسيفي خميس الكماة على أثريهِ وأعقابه
ومما شفاني عند اللقاء فرارُ «المليك» وأنسابه

* * *

تناولتُ «عكليِّهم» في الهياج فالتق سلحا بأثوابه

* * *

فظلَّ القُضاعيُّ تحت العجاج وللنجع نضحٌ بأقرابه
فيا من يُجاذبني في الفخار فإني وذي العرش أولى به
أرح ويك نفسك مما رجوت وخل العظيم لركّابه[20]

لقد انتصر في المعركة، ويلاحظ أنه لم يذكر أخاه بالاسم. أترىَ ذلك رعاية له؟

ولكننا عرفناه بـ «المليك» الذي فرّ. أكان بإمكان سليمان أن يقتل حساما ولكنه لم يفعل، فسمح له بالفرار؟ لقد كان، ولكن ليس هذا وقت إعلانه. أما أشد الانتقام قولاً وفعلاً فقد صبه على المبغضين من أنصار أخيه ممثلين بـ «العكلي» و «القُضاعيّ» واكتفى من ذكرهما بنسبيهما إلى قبيلتيهما دون ذكر اسميهما نصاً.

إن بالحدث التاريخي حاجة إلى إعادة سرد وتفصيل. وسيحصل هذا عند أول مناسبة جديدة. والمناسبة حاصلة ولا شك، لأن حساماً أخاه شقيقه لن يقعد عن سعيه إلى الملك وعمله على الإطاحة بأخيه وللأخذ بثأر استجد في الأقل، واستجابة لوسائل التحريض وحكايات المبغضين.

وها هو ذا حسام يستعد ويهدد ويستعدي و «يزبد ويرعد» ويعدّ العدة لمعركة جديدة يلتف حوله أنصار كثيرون طامعون، وينتظر وينتظرون الانتصار فالملك، فما يمنحهم إياه الملك من جاه ومال وكب العدو وغيظ الحسود واسترجاع الاسم...

ويبلغ ذلك سليمان، وليس صعباً أن يبلغه فهو الملك وهو الغالب ذو الأعوان والأنصار والخدم والحاشية. وكان بإمكانه أن يفاجىء أخاه بجيشه وأن يدهمه قبل أن يستكمل أمره، ولكنه لم يفعل، فيحقق لنفسه بذلك التأني من قارىء شعره ما لم يحققه قارىء التاريخ، فهو في التاريخ أحمق، سفيه، وهو هنا حكيم، رصين، ينظر في العواقب، يبدأ بالتي هي أحسن، فلعل «الأحسن» يبعد الويل، فإن أبعد فذلك الخير، وإلاّ فهو معذور عما سيقع. وهذا المنهج الحميد المحمود ليس بدعاً في تأريخ المعارك العربية مقابل ما في ذلك التأريخ من تسرع، ونخوة في غير محلها، وحروب لا معنى لها، ثم إذا وجد من أثنى على «التسرع» أو فخر به، فقد وجد من أثنى على «التريث» وفخر به.

وها هو ذا سليمان بن سليمان يكتب إلى أخيه حسام مخاطباً إياه بما يحب العرب أن يخاطبوا به من التكنية: «أبا ناصر» ويذكره بالأخوة وبمساوىء الحرب بل يذكره بما جرت عليه المعركة السابقة في «يوم الحبيل»، وليس ذلك عن ضعف فيه، فهو الشجاع، وقد شهدت المعركة نفسها له بهذه الشجاعة، ولا عن قلة في الأعوان:

... فمن مبلغ عني حساماً ألوكةً	تبلّغ معطاها لأهدى المذاهبِ
أبا ناصر لا تجهل الحربَ إنها	لتقطيع أسباب الإخا والمناسب
أبا ناصر إن الحروب لصعبةٌ	على راكب لم يلق قدما لراكب
ألم تنهك الحربُ التي سلفت لنا	«بحبل الحديد» يا كريم المناسب

ألم أترك القرن الكمي معفّراً　　بخديه مأمور أغبار السلاهب
ألم أنهل القرنَ الخشيب غراره　　نجيعاً إذا خامت كماةُ اللواعب
فإن كنت قد جربتَ حربي فسالمنْ　　وإن لم تكن جربتَ حربي فحارب
ولم ألبس الدرعَ الدلاص مخافة　　من الموت ، لكنْ سنةٌ للمحارب
ولم أركب الشّقّاء كي أتقي بها　　ولكنَّ لي في وثبها بالتضارب
سل الحربَ بي والخيلَ والليل والقنا　　وبيضَ المواضي والأيادي الرواتب
ففي السلم إطعام العفاة سجيتي　　وفي الحرب إطعام النسور السواغب
ورأيك في حرب امرىء غير طائشٍ　　ولا جازع من ميتة ، غير هائب
لعمرُك ما تلقى المكاره جاهلاً　　يصدُّ لتهييج الهزبر المواثب
وخيل كأسراب القطا قد وزعتها　　بأسمرَ خطيٍّ وأبيضَ قاضب[21]

كلام سليمان واضح معقول.

ولكنَّ أخاه حساماً لا يستجيب ولا يقبل المنطق ولا يرجع عما عزم عليه، وقد تكون له أسبابه التي لا نعرفها، لأننا نتابع أقوال أحد الطرفين ونراها حكيمة ونكاد نرى فيها صدق اللهجة.

المهم ـ في التاريخ ـ أن حساماً مضى يستعد ويهدد، فيبلغ ذلك سليمان فيمضي في تحذيره ودعوته إلى السلام، ودعوته ليست عن ضعف ولكن عن قوة وتعقل ونظر في العواقب وحرص على وحدة البيت النبهاني ، وإلاّ فسليمان شجاع مجرَّب ، عرفته الحروب مبكراً في فتاء العمر فكيف وهو الآن على أبواب الثلاثين:

... هرقتُ، ولم أبلغ ثلاثين حجة　　نجيع الأعادي في ظلام القساطلِ
فكيف إذا قاربتُها أو بلغتُها　　وصرت صليب الباع ضخم الكواهلِ
وغادرت «عكلياً» تحن نساؤه　　عليه حنين الفاقدات الثواكل
وظل «القضاعي» المشوم مجدَّلا　　فريساً لعقبان الوغى والفراعل
فَلَو أنني عاصرتُ عمراً وعامراً　　لبلّدتُ أقواماً بتلك الأوائل
فقل «لحسامٍ» راجع السلم تسلمنْ　　ودع عنك تذكارَ الوغى والطوائل
فإن طريقَ الحرب وعرٌ مضلةٌ　　تؤول بباغيها إلى غير طائل
فلا تطع اللاحين في السلم إنما　　قصارى انبعاث الحرب قطع المفاصل
ولا تحسبنَّ الحرب لهواً ولذةً　　ووصل كعاب في فناء المنازل
ففي الحرب تفريق لكل بني أبٍ　　وحتف النفوس بالقنا والمناصل
أبادت بني ذبيان في لطم داحسٍ　　بعبس فأضحوا من قتيل وقاتل
فلا تك بالحرب الكريهة جاهلاً　　فليس أخوك الندب فيها بجاهل

وما ابن أبيك الخير يوماً بضارعِ	بحربٍ ولا نائي العزيمة ثاكل
ولستُ بوجّاب الجنان إذا التقتْ	مغاوير فرسان الهياج الأمائل
فلا تلجئني للقتال فإنني	غيورٌ وشُمي مسرعٌ في المقاتل
وكائن قتلتُ من شجاع مدججٍ	رفيع بناء المجد أروعَ باسل[22]

ولم ينفع اللين، ولم يجد النصح، ولم يؤد الإنذار إلى ما صدر من أجله، فحسام هو هو يستعد وينذر ، وحوله اللاحون المبغضون الطامعون . وعلي سليمان ـ ويبدو أنه الأخ الأكبر ، والأقوى الواثق من نفسه ثقة مشروعة ـ إلاّن يتريث، ويعود إلى اللين والنصح والتحذير، لأن المسألة في ميزان العقل أعظم من أن يتهور فيها ويطيش صوابه لها، على أن ترتفع اللهجة شدة وتزداد الرسالة تفصيلاً وكأن ليس له إلاّ ذاك أو كأنه سيضطر أخيراً إلى ارتكاب ما يلوم نفسه عليه قبل لوم الآخرين ، ولوم المؤرخ من خلال ما دونه.

وها هو ذا يبلغ أخاه موقفه في جلاء وكأنه الإنذار الأخير الذي يستدعي إعادة مجرى «يوم الحبيل» بتفصيل جديد فيه دلالة وعبرة:

... أنا سيد الأملاك غير مدافع	وحِمام كل ممارس ومطاعن

* * *

كتب الإله علي ذُبابِ مهنّدي:	أنت الحِمامُ وفيك حَينُ الحائن
إذا جار منتضياً حساماً كاسمه	عضبا، ملامسُ حدِّه لم يأمن
يهدي أزبَّ كذي عُباب زاخرٍ	متكاثفٍ، مترادفٍ، متراطنِ
بصوارم مضرية، ولهاذمٍ	بدرية، وصوافن فصوافن
وفوارس كأسود بيشة فيهمٍ	ضرب يبلِّد بالشجاع الدافن
فلبستُ لامتي المفاضةَ واثقاً	بالظاهر المحيي المميت الباطن
وركبت «جفلة» والرماح شوارعٌ	والخيل بين تضارب وتطاعن
والشوس تهتف بالرجال حماسةً	والجو مدَّرعٌ بنقع شاحن
في صارخٍ حرج كأن قتامه	والبيض غيهب ذي كواكب داجن
فسقيت أولهم بكأسي مرّةٍ	من حر موت في سناني كامن
فصرعته وشرعت رمحي خالجاً	لمدجج لذوي الشجاعة غابن
فطعنته، فهوى لحرِّ جبينه	متسربلاً بنجيع جوفٍ ساخن
فشككتُ آخره فجلجل رابعاً	فهوى، وربّة مصلتٍ كالحاقن
وفتى «عزيز» قد هتكت بضربةٍ	جلبت له قَدَرَ القضاء الكائن

وافي إليّ بشأن شانٍ جاسرٍ ثم انثنى عني بشأن شائن
و «أخا قضاعة» قد أطرت فراخه بالقرن حتى خرَّ أهون هائن
فربحتُ حمدَ الجحفلين بنجدتي إن المحامد خير ربح الثامن
فتضعضعت عني الفوارسُ إذ رأت حملات «حيدر» في غزاة «هوازن»
ورجعت بالقرن الخشيب مثلما ودمٌ على ثوبيَّ هامٍ هاتن
فغدا يقول شريفهم ووضيعهم قولاً يهيّج كلَّ ثاوٍ كامنِ
لـلّـهِ درُّ «أبـي عـلـي» إنّـه أحيا الندى وأمات كل مشاحن
بذل الطريفَ وصان عِرضاً طاهراً والله يكسو الخزي وجه الخائن
لو كان غير «أخي» المحاولُ عثرتي لسقيته كأس الحمام الآسن
إذ كنتُ أعلم ما معادٍ مقلعٌ عما يحاول كالمعادي العادن
أبلغ حساما والحوادث جمّةٌ من ذي حشيً يغلي بنار ضغائن
ما بالُ دولتك التي أمَّلتها حادت ولم تُقدم حيادَ الحادن
طارت بعقلك في قتالي عصبةٌ لم يأس إذ يمشي بجد واهنِ
لا زلت تدعوني نزال مجاهدٍ دعوى امرىءٍ لدُهاء غير الحاقن
حتى إذا ما الحرب شبَّ لهيبُها وعلتْ كرهت مُطاعني ومعايني
فعليك نفسك ألزمَنْها رشدها وأقم مقام العاقل المتطامن
إني أنا الموت الذي لا بد من لقياته والموت ليس ببائنِ
قسماً لأنّ لجانبي لمواثبٌ لا عادَ ربك أيَّ ثاوٍ ماكن
والنصر من عند الإله قضى به لي في الوقائع في قضاه الكائنِ(23)

واضح أن سليمان يريد بهذه التفصيلات أن يبلي المعاذير كلها، فلا يترك من يلومه إذا شبت الحرب ثانية وفعل فيها ما فعل.

ونحن إذ ننقلها لأنها ضرب من وثيقة تاريخية لا نملك غيرها، وقد غلب الجانب السردي فيها على ما يطلبه الشعر من أناقة وتهذيب. فهي صفحة من النثر، من التاريخ جاءت نظماً.

وجاء في فوائدها أن عرفنا من شأن «العكلي» ، عزيز، وأن كنية سليمان بن سليمان: أبو علي .

إن «يوم الحبيل» مجد لسليمان ، ما زال يذكره ويذكّر به ويزيد من تفصيلاته ، ولهجته توحي بالتصديق حتى حين تصدر من طرف واحد، فكلامه تاريخ ـ حتى يرد العكس ، أو يرد ما يناقشه ـ وإذا كان لا بد من الاحتياط ، فَطَرْحُ ما يرجع منه إلى الحماسة والفخر الزائد، لتبقى بعد ذلك الأحداث وحدها مجردة ـ وهي غير

قليلة في تاريخ سليمان بن سليمان ، وتاريخ النباهنة وتاريخ عُمان . ويكفي أنها مما أهمله التاريخ .

«يوم الحبيل» - أو يوم حبل الحديد، كما يرد أحياناً - ليس حدثاً طارئاً، وهو واقع، ومن أدلة ذلك أن صاحبه، سلطانه، بطله، شاعره يعيده على أسماع قوم من كبار قومه - حتى بعيداً عن حسام - في معرض يطلب الإعادة ، يشرحه - في هذه المرة - بهدوء المنطق، وعناية الشاعر ، وقد نضيف ثمرة العمر وإملاء الشيب ، فهو يبدأ قصيدته هكذا :

دعاك الهوى واستجهلتك المعالمُ وكيف تصابى المرء و «الشيبُ» لازم[24]

فمن هؤلاء القوم الذي شرح لهم حاله مع أخيه حسام؟ ولماذا؟

إن القصيدة تقوم على الجواب، وربما خفف «الشعر» من وضوح هذا الجواب . وإذا غمضت بعض التفصيلات، فلا يصعب المعنى الإجمالي لها. وهذه نقاط المعنى الإجمالي - في حدود الممكن:

1 - جرى «يوم الحبيل» ووقع فيه ما وقع ...

2 - فلم يرتضِ ذلك قوم من خيار الناس وكرامهم وشجعانهم .

«بهاليل جبريين» - فهل تعني «جبريين» نسبة إلى جبرين ؟ فهم من أهلها.

أم تعني الذي ذهب إليه محقق الديوان «وأهل جبروت بنت معاليهم السيوف المواضي والأسنة القواطع» ؟

إني أميل إلى المعنى الأول.

3 - وفي هؤلاء القوم أسماء معينة لها موقع الصدارة هي : زامل ، وأبو سند ابن زامل، وسيف.

4 - فرأى السلطان سليمان بن سليمان أن يشرح لهم الحال، وأن يبين لهم الأدلة التي دعته إلى الحرب ، وهكذا مضى يسرد أحداث المعركة سرداً «شعرياً» هذه المرة مستوفياً تفصيلاتها . وعرفنا - فيما عرفنا أن «عكلياً» اسم (لأحد أنصار حسام) وأنه ابن عزيز. أما القضاعي فقد ورد ذكره فورد على «قضاعي» دون تفصيل.

5 - وأرسل إلى القوم ، وهم في مساكنهم الشرح مع من ائتمنه من جماعته على ذلك.

6 - ونسأل عن السبب في هذا كله؟ ونفهم من الكلام الذي حمله سليمانُ رسوله:

أ - ما مر معنا ، من أنهم لم يرتضوا وقوع المعركة، ولعلهم عتبوا عليه، وابتعدوا

عنه على حِين أنهم معدودون من أنصاره، أو أنه يعدهم كذلك.

ب ـ إنه استعان بهم، على أمر ، ودعاهم إلى نصرته في هذا الأمر، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته وخذلوه وتخلّوا عنه. فأضعف ذلك جانبه، وأطمع الأعداء به فثار منهم من ثار عليه.

ج ـ وها هو ذا يدعوهم إلى أن يكونوا إلى جانبه مثنياً على مجدهم محاولاً إزالة ما كان السبب في صدّهم عنه.

القصيدة محكمة من شتى جهاته شعراً وتاريخاً ومنطقاً ـ وهي ترينا سليمان غير ما أرانيه التاريخ. ويكفي من حكمته أن «يتنازل» فيترضّى القوم، ولو كان طائشاً «راكباً رأسه» لركبه الحمق ، وخاطبهم خطاب الجاهل.

أتراه كان يستعد لحرب أخيه بعد أن أخفقت سبلُ الدعوة الى السلام؟ أتراه يستنفر هؤلاء القوم على أخيه؟

دعاك الهوى واستجهلتك المعالم ... وكيف تصابي المرء والشيب لازمُ

وقفت بربع الدَّارِ قد غيَّر البلى ... معارفَه والمدجناتُ السَّواحمُ

أسائله عن أهله ما دهاهمُ ... وهل يرجع التسآلَ سُفعٌ جوائمُ

ورسم قديم العهدِ بالٍ كأنه ... بقيّات وحيٍ نمّقته الأعاجمُ

سقى منحاً سبعاً فبُهلى فأختها ... فأزكيَ غَيْداقٌ من الغيث راهمُ

منازلَ نحميهنَّ بالبيضِ والقَنا ... وكل هزبرٍ تتّقيه الضراغمُ

إذا خشيتْ جارات قومٍ إهانةً ... فجاراتنا فيهنَّ عزٌّ كرائمُ

ويا رُبَّ دَوٍّ قد قطعت ومنهلٍ ... وردت وجون الليلِ أسفعُ قاتمُ

ورُبَّ خميسٍ قد هزمت ومائلٍ ... أقمت وخصمٍ دسته وهو راغمُ

أراكبها وجْناء من سرٍّ شَدقمٍ ... ترضُّ الحصى أخفافُها والمناسمُ

أمونِ السّرى راد الملاطين جسرةٍ ... تَرامى بها أفيافُها والمخارمُ

تزِفُّ بجنيّ الشمائلِ مُقْدِمٍ ... على الهول لا يخشى أذاه المُسالمُ

إذا جئت بعد العشرِ قوماً أعاظماً ... تدين لهم في الخافقين الأعاظمُ

كماةً حماةً لا يُضام نزيلهمْ ... ولا يدَّعي ما يدَّعيه المُراغمُ

صناديدَ ضرَّابين للهامِ في الوغى ... إذا صافحت بيضَ السيوف الجماجمُ

بَهاليل جبْريين شادت عَلاهم ... ظُباة المواضي والرماح اللهاذمُ

أبا سند قرمَ الملوكِ ابن زاملٍ ... ومن يتَّقيه في المكرِّ المصادمُ

وسيفاً يروي كل سيفٍ ودابلٍ ... إذا أحجمت خوفَ الحمام المقادمُ

وزاملَ ربَّ الفضل والبأس والوفا ... ومن قصُرت عنه الملوك الأكارمُ

همُ القوم سادوا كلَّ حيٍّ وشيَّدوا … مراتبَ لم تبلغ مداها النعائمُ
ليوثٌ صناديد غُيوثٌ هواطل … جبالٌ منيفات بحار خضارمُ
هم الأُسدُ إلا أنهم في نزالهم … تذلُّ لهم أسد العرينِ الضَّراغمُ
بُحورٌ طَوَام غير أن أكفَّهمْ … إذا ذخرتْ غاضَ البحور القَماقمُ
فمن شأنهمْ حَوزُ الممالكِ والعُلى … ومن طبعهم بذلُ الندى والمكارمُ
سأخبركم يا عُصبةَ الخير بالذي … جرى بقضاءِ اللهِ والله حاكمُ
أتانا حسامٌ مصلِتاً لحسامهِ … يجر خميساً بحره متلاطمُ
يؤمّل أن يحوي عُماناً بجمعه … وللّهِ حكمٌ في البرية قائمُ
بيومٍ على حبل الحديد غَدَتْ بِهِ … تُريق الظُّبا ما لا تريق الغمائمُ
نجيعاً كأكباد الرِّكاب رمت به … شفار المَواضي والرماحُ اللَّهاذِمُ
فجاؤا مجيءَ البحر عَبَّ عُبابُه … وجئنا كما يأتي الأتيُّ المزاحمُ
فلما تراءى الفيلقانِ وأزْمعا … قتالاً وعُقبانُ الحمامِ حَوائمُ
وكنَّا وبيتِ الله في العدِّ دونهم … رجالاً وخيلاً حين حُمَّ التصادمُ
فلمَّا اطْلخَمَّ الأمرُ قمتُ مجنَباً … لجفلةَ إذ لا غيرَ ذي العرش عاصمُ
وَظَلْتُ أديرُ الطَّرف في خيلي التي … جمعت فلم أنجح بما أنا شائمُ
فأصلتُّ سيفي واتقاني توكّلي … على الله بالله الذي هو حاكمُ
وأيقنت أني لم أمت قبل ساعتي … وأني إذا لم أحمِ لم يحمِ حاجمُ
ومن لم يمت في العزِّ مات مذَمماً … ذليلاً ولم تحسن عليه المآتمُ
فأقبلتُهُم وجهي وقد مال جمعهمْ … عليَّ وعزمي لم تمته العظائمُ
أنشرهم فوق الحُبيلِ ودونه … كما انتثرت من صُرَّتيها الدراهمُ
بضربٍ يبينُ الهام عنْ مستقرها … وتنأى عن الأكتاف منه المعاصمُ
وطعنٍ كأفواه المزادِ تحلَّلت … وقد أترعت بالماء منها المحازمُ
وأشرعتُ رمحيَ طاعناً لمُدجَّجٍ … فأخليت منه سرجه وهو راغمُ
ونُشْتُ كمياً ثانياً متدّرعاً … فخرَّ صريعاً وهو للأرض لاثمُ
وعارضتُ قرناً ثالثاً فصرعتُهُ … على رغمهِ وهو الشجاع المقاومُ
وبادرت عكلي ابن عزيزٍ بضربة … فخرَّ صريعاً لم يقم فيه قائمُ
وطاغ قضاعي أطرتُ قذالَهُ … بسيفي ولم تحفظه مني التمائمُ
فظلَّ عفيراً ناضحاً بنجيعهِ … تناهبه تحت العجاج القشاعمُ
فكلُّوا وملُّوا وابذَعرُّوا وأوجفوا … فراراً كما فرَّت لَعَمري النعائمُ
وحادَ حسامٌ عن حسامي مهللاً … يروحُ ويغدو وهو للنفس لائمُ

وأبتُ بسيفي قد تثلَّمَ حدُّه — وجفلةُ فيها للكلام محاجمُ
وبي ما بها من طعنهم غير أنني — جليدٌ إذا كلَّت هناك العزائمُ
فما يهدُمُ الأعداء ما اللهُ رافعٌ — ولا يرفعونَ الدهرَ ما اللهُ هادمُ
وإني وإن سلمتمُ أو نصرتمُ — لخِلٍّ وفِيٌّ بالمودّة دائمُ
أراكم بعين الود غيْباً ومشهداً — وأسمو بكم والله بالغيب عالمُ
أعادي معاديكم وأهوى محبَّكم — ولمْ يثنني عنكم عذولٌ ولائمُ
فَلِمْ تخذلوني عند كل عظيمةٍ — وكفي بكم بِاللمروءةِ لازمُ
تخلَّيتم عنَّا فطالتْ يَدُ العِدى — علينا وثارَ المُستَنيمُ المخاصمُ
أخيفوا قُلوبَ القَومِ تخضعْ رقابهم — لكم أبداً فالقوم صمٌّ صلادمُ
أميتوا نُفوس الأمْرِ منْهمْ بصولةٍ — خُويخيةٍ تنفضُّ مِنها الحيازمُ
أريقُوا عَليهم وابلاً من عِقابِكمْ — عسى يقعدُ البغي الذي هو قائمُ
وإنْ أنتم لم تذْعروهم بسَطوةٍ — فما الأمرُ مسموعٌ ولا الخوف لازمُ
إذا المرءُ لم يبدأ بِهَضم عَدُوهِ — فلا بدَّ يَوماً أن يُرى وهو نادمُ
فكونوا كظني فيكم إنْ كي بِكم — لَظنَّاً جميلاً عَهْدُهُ متقادمُ
بقيتم ولا زال الآلهُ مساعداً — وظهراً لكم والله برٌّ وراحمُ

ولا بد مما ليس منه بد. إن حساماً يستعد ويستعدي ويلح في طلب الحرب كأن لا بد للمأساة أن تجري إلى نهايتها، فلقد نفد صبر سليمان، وحول هذا وهذا طامحون طامعون . وتقع الواقعة، وتشتبك القنا وتتضارب السيوف، ولا شك في شجاعة حسام وكرمه وجلال منزلته، فها هو ذا أخوه ـ عدوه يشهد له بذلك ويفوق في شهادته ما يمكن أن يقوله حسام نفسه في نفسه.

ولكن بعد فوات الأوان .

فقد قُتل حسام في المعركة.

قتله أخوه سليمان نفسه، بسيفه.

واعترف بإثمه في ذلك.

وإذا كان عذره في ذلك أن أخاه «أحفظه لفظاً» ، وأنه لم يمكن دفع المنية وهي مقدرة، فإن الموقف أصعب مما تحتمله نفس شاعرة عارفة لشأن الأخوة، صحت على هول الحادث، ولم يبق لها إلاّ البكاء والتوجع ، وتمجيد محامد الفقيد واستعظام رؤية نعشه يمرُّ عليه، فإذا اللهفة تتبع اللهفة تتبع اللهفة والشعور بالخسارة يزداد ، ولا يخلو الشعور بالخسارة من الندم ولات حين ندامة، ولا يجدي الدمع فتيلاً، ولا يجدي بكاء على ضريح أو تسليم عليه وكلام معه، واستعداد للفداء .

المصيبة عظيمة والخطب جلل.

ولم يبق إلاّ أن يفزع إلى الله يدعوه أن يجزي أخاه «الجنان مثوبة».

فإذا جفّ الدمع،

وإذا عاد الأخ المفجوع إلى الحال بعد فقد أخيه، ازداد حقداً للمبغضين الذين هاجوه عليه ودفعوه إلى الحرب، وجاءوا معه ينصرونه، حتى إذا دارت رحى الحرب، وبان نصر سليمان تركوا حساماً مضرجاً بدمه، ولاذوا بالفرار.

هذه هي الحال الباقية، ولا بد من علاجها، ولا علاج بغير الاستصغار والإثارة والإنذار، ولا بد من حربهم وهو المطمئن إلى شجاعته وإلى شجاعة فوارسه بسيوفهم ورماحهم وخيولهم...

أما بعد المصاب العظيم وإنذار «اللؤماء»... فالشعر، فالقصيدة[25] الحزينة المعربة عن أرقّ عاطفة لا تتهم بنفاق وكأنها صادرة عن أم ثكلى، وتمضي العاطفة الحزينة تسيل على الورق لفظاً هو الدمع ... تذكرك بالخنساء تبكي أخاها صخراً دون أن تكون لها يد في نهايته ، وتذكرك ـ أكثر من ذلك ـ بالمهلهل يبكي أخاه كليباً.

وقال يرثي أخاه حساما:

نبأ له تَصلى القلوبُ وتخشعُ ... وتَفيض بالعبرِ الجفونُ وتَهْمَع

نبأ تكادُ الأرض ترجف عنده ... وتكاد ثَمَّ جبالها تتصدَّعُ

نبأ له طفقَ الملوكُ بغُمَّةٍ ... حيراءَ تلهف ليلها وتفجَّعُ

أحسامُ أوصبَ همُّ يومكَ خاطري ... والهمُّ يخطر بالقلوبِ فيلذعُ

أحسامُ أوجعني رَداكَ ولم أكن ... قِدماً ليُوجعني مصابٌ موجعُ

أحسامُ عَزَّ عليَّ فقدكَ من أخٍ ... عَفِّ الشمائلِ جوده ما يُقلعُ

للهِ أنتَ رَبيبَ تختِ أروعاً ... قِدماً نماه رِبيبُ تَختِ أروعُ

سحقاً ليومكَ كم أراقَ وكم شجَا ... دمعاً وقلباً قبله لا يجزعُ

ما خِلت أن الطودَ يُحمل قبل ذا ... حتى يمرَّ عليَّ نعشك يُرفعُ

لا كانَ يومكَ يا ابن أم فإنه ... يوم أمَرُّ من الحمام وأفجَعُ

لهفي عليكَ كلهفِ جيلٍ أصبحوا ... تجتاحُهم نُوبُ الزمانِ وتقرعُ

لهفي عليكَ كلهفِ ضيفٍ طارقٍ ... ألفى مُناخكَ وهو صِفر بَلْقَعُ

لهفي عليكَ كلهفِ راجٍ أصبحت ... آماله بكَ وهي حَسرى ظلَّعُ

لهفي عليكَ كلهفِ حيٍّ لِمْ يقُم ... فيهم يضُركَ ما ذهبتَ وينفعُ

لهفي عليك كلهفِ أمٍّ برَّةٍ ... فقدت جنيناً فهي ثكلى تنزعُ

لهفي عليكَ كلهفِ طفلٍ قطِعت ... منه العلائقُ فهو باكٍ يفجعُ

لهفي عليكَ كلهفِ خيلٍ أصبحت ... آذانُـهـا لمصـابِـهـا بـكَ تجـدعُ
ضَعضعتنا أسفاً عليكَ ولم نكن ... لولا رَدَاكَ لنكبةٍ نتضعضعُ
إن أمسِ مأثوماً بقتلكَ إنني ... بكَ يا ابنِ سيِّد يغربٍ لَفُجَّعُ
قطعت يدي عمداً يدي وتوهمي ... من قبل أنَّ يداً يداً لا تَقطعُ
لا يُبعدنكَ الله ربكَ راحلاً ... أضحى لنيَّةِ ذاهبٍ لا يرجعُ
ولعاً بجدّكَ من جَوَادٍ عاثرٍ ... جَد الزمانِ له عثَور يظلعُ
لما أتـاحَ لـك الإلـه مـنـيـةً ... فإذا المنيةُ أقبلت لا تُدفعُ
ولقد تقود الصافناتِ شوازباً ... قُباً تناقل في الشكيم وتمزَعُ
ولقد تجود بما ملكت وما اغتدى ... شادٍ بمدحك في المحافلِ يصدعُ
حَسَّنتَ تأبينَ المصاقعِ مثل ما ... حسنتُ مدحاً فيك كان يُرصَّعُ
أأخي أذْبتَ مَصونَ دمعي فانبرى ... يطأُ الخدودَ إذا يجود ويَهْمعُ
أوحدتني وذهبتَ ثم تركتني ... أبكي لفقدكَ كلَّ قبرٍ يوضعُ
كم قد ظللت على ضريحكَ باكياً ... لو أن ذلكَ يا ابنَ تُبعَ ينفعُ
ولكم وقفت مسلِّماً ومكلِّماً ... لو كان يعقل ميتُ أو يسمعُ
تفديكَ من حَدَثِ المنيةِ أسرتي ... يا ابنَ الملوكِ وكلُّ مالٍ أجمعُ
قد كان سيفكَ قبل يومك قاطعاً ... فغدا بيومكَ نابياً لا يقطعُ
أحفطتني لفظاً أتيح منيَّةً ... خطرت ولم يك ثَمَّ عنها مدفعُ
فالله يجزيك الجنان مثوبةً ... منه وربّكَ فهو نعم المفزعُ
فلأبكينَّك ما استحنَّ لإلفهِ ... إلف وما غدت الحمائمُ تسجعُ
أبلغْ بني اللُّؤماءِ أن مهنَّدي ... أمضى السيوفِ وأن عزمي أقطعُ
هل فيكم كأخي لديَّ جَلالةً ... وهو الذي أضحى بسيفي مُصرعُ
فأنا النذيرُ لكلِّ قومٍ بعدها ... مني بفاترةٍ تَسُحُّ وتهمعُ
فذروا التعاظم واتّقوا مني فتى ... كل الكماةِ له تذلُّ وتخضعُ
لا فرقَ بينكم وبين نسائكم ... عندي وهنَّ لديَّ منكم أشجعُ
وكأنني بكمُ وقد جاءتكمُ ... والبيضُ تلمعُ والأسنَّة شُرَّعُ
كنعاج توضحَ شَدَّ فيها ضَيغمٌ ... فغدت نَوافر شَتُّها لا يجمع
أو كالجرادِ علا ففرَّق شمله ... في ظلِّ مُدجنَةٍ حريقٌ زعزعُ
فلأنقلنَّ إلى الطغاةِ رَحى رَدىً ... أبداً يدور بها الزمانُ المفجعُ
ولأنشئنَ غمائماً من نقمةٍ ... جُوناً ووابلها الذُّعاف المُنقعُ
تَهمي فأيةُ لينةٍ لم تنقعر ... لهم وأية قلعةٍ لا تقلعُ

كيفَ التذاذي بالرُقاد وها هنا بيضٌ معطَّشة وطيرٌ جُوَّعُ
وفوارسٌ كأسود بيشة في الوغى لا تنثني رَهَباً ولا تتكعكعُ
وقَناً خواطرُ كلها خَطيَّةٌ فيها سِنانٌ كالمنارةِ يلمعُ
وسَوابق قُبُّ البطونِ كأنها إن ثارَ عيثرها الذئابُ الهُرَّعُ
شرفُ الملوكِ على العبادِ لأنهم قوم أباحهم الممالكَ تُبَّعُ
قومي بنو ماءِ السماءِ ودَوحتي هُودُ النبيِّ نجارها والمَنبعُ
ولنا إذا ضَنَّ الغَمامُ مواهب محمودة تشفي اللُّهاةَ وتنفعُ
رفع الإلهُ على النجومِ محلنا واللهُ يخفض من يشاءُ ويرفعُ

* * *

وبعد،

فما الذي جرى له مع «بني اللؤماء» ؟

إن تهديده شديد، وإهانته إياهم أشد، ولا يبدو غيظهم من سير الأحداث الماضية، مما يخبو، وطمعهم مما يتوقف .

ثم إن سليمان في العنفوان من قوته وحقده وغيظه...

ويعني منطق الأحداث والأخلاق ـ حينئذ ـ وقوع الصدام. هكذا يعني ولكننا لا نملك السند الأكيد . فما وصل إلينا من أولئك خبر أو رأي، وإذا وصل إلينا عن سليمان فخر متصل بانتصاراته على الأعداء فإنه لم يشخّص أولئك الأعداء ولم يربط انتصاره «باللؤماء» الذين التفوا حول أخيه.

وما فتىء سليمان يتحدث عن حروبه دفاعاً عن نفسه أو عن عُمان كلها، أو هجوماً على آخرين من أجل أن يوسع ملكه وتستتب له عُمان كلها. ولكن سليمان لا يربط ذلك بتاريخ، وذلك مفهوم لأنه ملك شاعر وليس مؤرخاً. ولا بد من أن تكون هذه «الوقائع» جرت فعلاً قبل «يوم الحبيل» الذي انتهى بقتله أخاه، وقد ألمحنا على تصورنا بشيء من تلك الوقائع ، ولا بد من أن تكون وقائع جرت بعد القتل. وحين يعوزنا تحديد الزمان والمكان لا يعوزنا أن نقف بالواقعة من حيث هي واقعة جرت ـ في مكان ما وزمن ما ـ بين سليمان وأعداء سليمان.

وفي الديوان يرد «مانع[26]» وقد نسبناه إلى ما قبل «يوم الحبيل».

ويرد «صعب، وقد تكون قيامته من قبل، وقد تكون من بعد، وهي لا تخلو من صلة بمانع» فقد عمل صعب هذا ـ كما عمل مانع من قبل ـ من أجل أن يملك

عُمان فجمع جموعه وفيهم «موينع» و «أبو شُريح» ولعلهما علمان لقبيلتين لأنه يعطف عليهما قبيلتين هما «السوالم» و «النفول».

ولا ندري أدارت الحرب أم لم تدر ، ولكن الواضح أن السلطان سليمان أنذرهم أشد الإنذار ، وهددهم أشد التهديد ـ ومثله يقول ويفعل :

ألا هبلتك يا «صعبُ» الهَبولُ أصاح أنت أم سَكِرٌ ثميلُ
جمعت «موينعاً» و«أبا شُريح» ووافاك «السوالم» و«النفول»
وجئت لتملكنَّ بهم «عُمانا» ورأيك ـ والعلى ـ رأي ضليل[27]

ولا ندري ما جرى بعد هذا التهديد الحانق المتعالي الذي يصعب أن يمر دون إثارة المتجمعين لحرب هذا الملك المتجبر في نفسه ، ودون أن تقع الحرب . وقد نعود بالتهديد إلى ما بدأنا به قيام سليمان ابن سليمان وتمكنه من «نزوى» و «سمائل» فجاءه من الجموع من يبغي حربه وكسره فما استطاع فغُلب الجمع وانتصر سليمان في بُهلى وأزكى واتسع سلطانه[28].

قد تبدأ بالتهديد مرحلة جديدة انتهت إلى معركة انتصر بها فازداد «غروراً» فإذا هو «مليك العرب» و «مليك الأملاك»، و «مليك العرب والأعجام» وإذا كان مجده من مجد الأزد، فإنه صار مجداً لهم:

أنا سيد «الأزد» الذي خضعت لهُ رقابٌ صعاب من ملوك أعاجم[29]

ترى كيف صار مليك الأعاجم؟ ومن هم ؟ الأعجام ـ آنذاك ـ الفرس، فهل التحم معهم في مكان ما من عُمان أو خارجها؟ أو أنه يبالغ في «أحلام اليقظة» أو يشير إلى تاريخ لا يخلو من غموض يختلط فيه الذي كان بالذي يريده أن يكون ؟ بل إن مجموع الأحداث منذ اشتداد عداوة قومه عليه، وتخلي من عاتبهم على تخليهم عنه في وقت الحاجة إليهم، ثم قتله أخاه، وقد زادهم قوة واتحاداً وزاده ضعفاً وندماً... إن مجموع الأحداث يدل على خسارته وفقدانه السلطان.

في الديوان «قال في سفره إلى هرموز بفارس» . وقد نظم القصيدة ـ كما يبدو ـ وهو في «القَشم» ـ وهي «جزيرة في الخليج العربي كانت تسمى قديماً كلوان» ـ استجابة لخاطر مر به، وهوى طرقه فحنّ، وتشوق إلى عُمان وأهله في حصن العميري وعقر نزوى وشرع بهلى وأكناف الحوية والصوى وجبوب وأخاش وبطحاء الفُليج ـ الحنين شديد لأهله ، بعدما حال دونهم بحر زخّار هائج ، وبعد الحرب «قفر تعوي به الذئاب ، كأنه الذي بين الساحل ونزوى وبهلى . ثم يأتي شرح الحال من السفر:

فإن أكُ قد فارقت قومي وأسرتي لإدراك شأوٍ شاسع أنا طالبهُ
فقبلي «سيفٌ» رب غسان طوّحت به نيّةٌ إذ أنكر الضيم جانبه
تغربَ فرداً يطلب العزَّ جاهداً وفاءً بمثل اليمِّ جاشت غواربه
فظلَّ بعزّ يلفظ الدرَّ تاجه بغمدان واحلولت إليه مشاربه
سأفجأ أجناد الطغاة بفيلق من العزم مَجْرٍ مردفاتٌ كتائبه
يسير به النصر الذي هو حزبُه وينجده النصر الذي هو صاحبه
فلا ملك يرتاد ما أنا طالبٌ ولا يركب الصعب الذي أنا راكبه

* * *

إذا الليثُ لم يقدم على الهول جاسراً وإن جلَّ لم تقدم عليه ثعالبه

* * *

ونحن بنو ماء السماء ومن يكن أباه وأيُّ المالكين يناسبه
ملكنا الورى بالسيف حتى تضاءلت أعاجمه ذلاً لنا وأعاربه[30]

فما هذا؟ ولماذا؟

القصيدة تجيب عن الأسئلة ولا تجيب : فالشاعر يقول: إنه فارق قومه وأسرته لإدراك شأو هو طالبه، وماذا يمكن أن يكون الشأو غير الملك (الذي فقده)، وماذا يطلب من «هرموز بفارس» غير العون العسكري، اقتداءً بجده «سيف بن ذي يزن» حين طلب العون من كسرى (على الأحباش) فأعانه فصفت له اليمن (وعاد الفرس إلى بلادهم).

إنه يفعل فعل جده، ولا بد من أن يكون مضطراً جداً بحيث لم يكن له في عُمان مكان من السلطة، وأعوان على الملك، فهي بيد غيره، ممن هم أعداؤه. ولم يعرج الشاعر على هذه الحال، ولم يعين أعداءه ، ولا بد من أن يكون فيهم قبائل كانت مناصرة للنباهنة ومنهم، وقبائل كانت ـ أو صارت ـ معادية. ولا بد من أن يكون فيها المناوىء الطبيعي الدائم المناوءة الطالب للتفرد بالحكم وهم الأئمة والفقهاء وحماة الدين، وقد قوي شأنهم وجمعوا شملهم على حين ضعف الملك النبهاني...

هذا هو الممكن الذي يعين على ذكره التاريخ في لقاء له مع الحال التي تعكسها القصيدة، ويرد سؤال آخر عن زمن هذا الحال؟ وطبيعي أن يصعب تحديدها أهي في النهضة الأولى لسليمان بن سليمان؟ أم الثانية؟ أم الأخيرة وقد تألب عليه «اللؤماء» واقترن تألبهم بقوة دبت في «الإمامة»؟

إذا استعنا بحس من النقد الأدبي، رأينا في «متانة» القصيدة ما يضعها في «سن» متأخرة من عمر الشاعر وتجربته. ثم إن في الأماكن التي يحن إليها ما يدل على «مجد» له مضى، والطبيعي أن يقترن ذلك المجد بسلطته.

وسؤال آخر عما أدّى إليه سفره؟ ليظل بدون جواب فليس لدينا في الشعر والتاريخ ما يجيب عن السؤال. هل حصل على المساعدة؟ هل عاد بها إلى الحرب فالانتصار فالسلطان ؟ هل عاد خائباً فلاذ بالصمت يتذكر أيامه، ويستخلص العبرة، وتمضي به التجارب القاسية إلى الحكمة في الرأي، والزهد بالحياة؟

مر في شعره بأنه تحمل مسؤولية الملك ناشئاً، وإنه مارس الحرب غالباً دون الثلاثين، دونها كثيراً، ثم حين قاربها. وقد ملك ما ملك بدءاً بنزوى وسمائل وانتهاء بعُمان كلها، ورأى من الناس خيراً وشراً، ولقي في الحياة حلواً ومرّاً، وخلال المرّ تنبه إلى نفسه فرأى «الشيب» يدركه لينهيه عن التصابي ـ ولات حين تصاب.

وها هو ذا في في «عشر الأربعين» مخبّر إيانا خلاصة لعمره فهو اللاهي العابث نساء وخمرة، وهو الشجاع الكريم الفاضل وهو «ابن ذي التاج المليك تبَّع»... يحدثنا طويلاً وتفصيلاً في قصيدة بلغت خمسة وسبعين بيتاً، حتى إذا بلغ مقْطعها الأخير قال:

من كل ما نال الملوكُ نلتُه	وكلُّ حيٍّ للحُتوف والتوى
والمرء لا ينفعه من ماله	إلاّ الذي قدَّمَ في سُبْل الهُدى

لقد حدث طويلاً، وخاض موضوعات متنوعة، ولكن الملاحظ أن الفعل الغالب هو الفعل الماضي حتى إنه لم يقل «أنا ملك» أو «أنا الملك».

وللمرء أن يقول ـ مع احتياط لا بد منه ـ إن سليمان بن سليمان لم يعد ملكاً وهو في عشر الأربعين من عمره، وإنه في جو من اليأس أسلمه إلى استرجاع الماضي ليخرج منه بعظة لنفسه ولغيره:

«من خاضَ عَشْرَ الأربعينَ عُمْرُهُ	ولم يزغ عن غيِّه فقد غوى»

وللقارىء أن يحسب هذا من منطق الحياة وطبيعة الأشياء، فلا بد للطيش من عقل، ولا بد للعبث من أن ينتهي إلى جد، والغرور إلى تواضع، والحماقة إلى حكمة ، وللقارىء في ذلك سند من قصيدة أخرى بلغت ستين بيتاً ولا تكاد تجد فيها غير «الحكمة» ثمرة «لممارسة أحداث الزمان» وتجاريب «رَيبه وصَرْفه»:

... وإذا الكريم كبت به أيامه	رفضته رفض الأجرب الإخوانُ

والناس أعوان القوي لذاته وهُم عليه إذا هوى أعوان
لا تشتَمنَّ رديَّ قوم غالهمْ صرف الردى وكما تدين تدان

* * *

لم تحوِ حقَّك بالمزاح فإنما بالجدِّ يحوي حقَّه الطعّان[31]

إن متابع سيرة هذا الشاعر السلطان ينتهي معه إلى التعقل أو العقل، فهذا هو ما يساوق أقواله وقد تقدم بالتجربة (ولا يهمنا أن يدعي - بعد فوات الأوان - وهو في خضم التجربة التي تفرض عليه الحكمة - لا يهمنا أن يدّعي إن ذلك العقل له مذ هو «يافع»[32]) وهو لم ينكر ما كان له من لهو وطيش على ما يشاء فتى ملك المال والجاه والجرأة والسلطان، ولو أنكره لألحنا على ازدواج الشخصية، وعلى أنه يقول في مكان شيئاً، ويفعل في مكان آخر - أو في المكان نفسه - شيئاً ضدا. إنه الآن في فسحة من الوقت يراجع فيها نفسه ويستعيد شريط حياته.

وهنا، هنا يسائل السائل أينسجم ما آل إليه هذا الرجل الذي نهاه الشيب ووزعته عشر الأربعين بعد الحلو والمر الذي رآهما، والمرارة التي وقع فيها... يسائل السائل أينسجم هذا وما رواه التاريخ من: «أن سليمان بن سليمان هجم على امرأة تغسل بفلج الغنتق، فخرجت من الفلج هاربة منه عريانة، فجعل يعدو في أثرها...» كل هذا والتاريخ يقول - إن سليمان بن سليمان كان سلطاناً آنذاك ؟[33]

الحواشي:

1 - صدر الديون في طبعة أولى في دمشق، المطبعة العمومية، سنة 1965 بتحقيق عز الدين التنوخي. على النسخ الدغارية، والحمدية، والمنذرية والسليمية والكندية.

وقد بذل الرجل جهداً مخلصاً في المقابلة، وزاد عليها شروحاً نافعة جداً لقارىء الديوان، وضّح فيها المفردات الصعبة، والتركيبات الغريبة، وما يمكن أن يكون خاصاً بأهل عُمان من شؤون اللغة، كما أشار إلى ما يمكن أن يعد خطأً وما هو من مستدق علم العروض إيجاباً وسلباً... وعرّف بالمواقع معتمداً غالباً على معجم البلدان لياقوت، واستطاع أن يحدد - قدر الإمكان - أماكن عُمانية خاصة وردت لدى الشاعر العُماني هذا.

ولا بد من أن يكون الذين هيأوا للتنوخي النسخ واستعانوا به على التحقيق قوم من عُمان نفسها، ومن غير الجهات الرسمية آنذاك .

ثم لا بد من أن يكون هؤلاء قد ساعدوا التنوخي في تقريب الجو التاريخي وتحديد المواقع الجغرافية لأن الرجل سوري من المجمع العلمي العربي بدمشق وهو لغوي أولاً.

لقد أدّى القوم لشاعرهم خدمة، وأدّى التنوخي لهم وللشاعر ولنا خدمة أخرى - لا بد من ذكرها ونشرها.

ثم إن «وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان» رأت ضرورة لإعادة طبع الديوان ـ وحسناً نعلت، مشكورة ـ فصدر عنها سنة 1404 / 1984 (مصوراً فيما أرى) في القاهرة، أمون للتجليد والطباعة، رقم الإيداع (في مصر) 1738 / 84 .

وقد رفع عنها اسم المحقق ـ ولا أحسب هذا صحيحاً ـ عن هذه الطبعة فجاءت غفلاً عن المحقق، تصدرتها مقدمة بست صفحات ـ أكثرها نصوص من شعر الشاعر ـ كتبها سليمان خلف الخروصي (حرر في اليوم 3 ربيع1 / 1401 هـ الموافق 10 يناير 1981 م).

لم يرد اسم عز الدين التنوخي إلاّ في الفقرة الأخيرة من المقدمة، ولم يرد على أنه المحقق الذي حقق وبذل فاستحق الذكر والشكر وإنما، وإنما ورد هكذا : «وقد ذكره عز الدين التنوخي فقال: إن شعره يمتاز بجزالته (...) انتهى كلام عز الدين التنوخي وهي لعمري شهادة من علامة كبير يعرف تقييم الشعر ومستواه ونقده». وكم كان مناسباً لو قرنت هذه الشهادة بالنص الصريح على فضله في التحقيق .

ثم إن المسألة ليست مسألة فضل على فاضل، وإنما هي مسألة علم، وإلاّ فأين الحديث ـ مثلاً ـ على النسخ المعتمد عليها في التحقيق ومن شرح المفردات وعرف المواقع والأعلام...؟

2 ـ قال سليمان خلف الخروصي وهو يقدم للطبعة الثانية من الديوان (ص ب): «ولد شاعرنا النبهاني في النصف الأول من القرن التاسع الهجري (الرابع عشر للميلاد)...». وهذا أقصى ما يقال عند غياب النص على التحديد بالعام، ولا يمنع باحثاً آخر قد يرى الولادة في منتصف القرن، أو في النصف الثاني ـ والمسألة مسألة اجتهاد أو تقدير غابت عن صاحبه الحقائق.

3 ـ القرزمة؛ قول الشعر رديئاً... وهو يقرزمه.

4 ـ الديوان 235 ـ «وادي العقر، من أودية عُمان...».

5 ـ الديوان 309 .

6 ـ الديوان 298 .

7 ـ الديوان 68 ـ 74 ـ والمواقع الواردة في القصيدة تقليدية في الشعر.

8 ـ الديوان 89 ـ 92 ـ وينظر لقصيدة عمرو بن معد يكرب «حماسة أبي تمام». «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، القاهرة 1371 / 1951، 1 / 174 ـ 182 .

9 ـ الديوان 13 ـ 16 ـ والمواقع من جزيرة العرب .

10 ـ الديوان 204 ـ 208 .

11 ـ الديوان 269 .

12 ـ الديوان 212 ـ 214 ـ يذكر اسم «جفلة» وسيتكرر ص 316 . ونزوى ـ عاصمة عُمان .

13 ـ الديوان 171 ـ 172 .

14 ـ الديوان 13 ـ 16 ـ «يوم الظفر وقعة له بهذا الموضع غربي اللواء، والضفر حديقة بنزوى ـ هـ . ص 254».

15 ـ الديوان 249 ـ 255 .

16 ـ الديوان 46 ـ 53 ـ «العقر : محلة ببهلى. وأزكى: مدينة في أعمال الجبل الأخضر (ص

292) أقدم بلد بعُمان نزل بها من العرب بنو عدنان وقحطان . وبها إلى اليوم حارتان يقال لأحدهما حارة اليمن يسكنها القحطانيون، والأخرى حارة النزار يسكنها النزاريون العدنانيون، وهدمت بريطانيا بناءها سنة 1956 - ص 52» . المبقع : موضع بعُمان .

وبهلى (وقد ترسم: بهلا) مدينة من أعمال الجبل الأخضر (ص 292).

17 - الديوان 12، 253 .

18 - اسمه حسام، وكنيته أبو ناصر.

19 - الديوان 248 - 249 .

20 - الديوان 30 - 33 - «يوم الحبيل ، والحبيل أو حبل الحديد: مرتفع بين منح وبلدان العوامر شرقي نزوى . بها وقعت معركة بين الأخوين . وجاء في حاشية المنذرية أن الحبيل موضع فلج قديم شرقي منح».

«المليك» الوارد في القصيدة: أخوه حسام.

عكلى والقضاعي سيتكرران، وهما من أنصار حسام. وفي حاشية ص 211 على عكلي: انه «منسوب إلى قبيلة عكل. ولعله من أنصار حسام...» ولا موجب لنسبته إلى قبيلة عكل، لأنه يرد باسمه: عكل .

ويرد اسم عكلي على أنه عكلي بن عزيز (ص 296) ، وفتى عزيز (ص 316) وقد قتله سليمان.

كما يرد عزيز كذلك في أنصار حسام.

وفي حاشية ص 212 «القضاعي: المنسوب إلى قضاعة من قبائل عُمان» - ويرد ص 317 «أخو قضاعة» وقد قتله سليمان.

21 - الديوان 28 - 29 - «الشقّاء: من شقَّ الفرس إذا مال في جريه إلى شق فهو أشق وهي شقاء» والشقاء - هنا - صفة لفرس سليمان بن سليمان . وسبق أنَّ اسمها: جفلة.

22 - الديوان 212 - 213 .

23 - الديوان 314 - 308 - أبو علي هو هو سليمان بن سليمان.

24 - 291 - 298 ، ننقلها كاملة لدلالتها، فهي نص تاريخي - أدبي - منح: مدينة جنوبي مدينة بركة الموز .

جاء في حاشية 293 «جبرين: أي أهل جبروت بنت معاليهم السيوف المواضي والأسنة القواطع» وأحسب أن المقصود نسبتهم إلى جبرين (التي ترد أحياناً يبرين على لغة من يقلب الجيم ياءً) ولا يبعد أن يكون الأصل : جبرينين.

وفي الحاشية «أبا سند ابن زامل: أبا مفعول به لجئت ، ويظهر أن أبا سند وسيف وقومهما كانوا من أعوانه على أخيه حسام لذا أثنى عليهم كل الثناء » .

والذي يبدو لي يمكن أن يخالف ذلك . فهم غير راضين عن سليمان (لأمر ما)، وقد يكون هذا الأمر حربه أخاه، وهو يثني عليهم لا لأنهم أعانوه على أخيه، وإنما لأنهم غير راضين عنهم فأرسل إليهم يسترضيهم، وفي الاسترضاء الثناء.

وتنظر 331 - 334 .

25 ـ الديوان 148 ـ ,153 ننقلها كاملة لدلالتها التاريخية ـ النفسية ـ الأدبية. ويرد فيها «بنو اللؤماء» ص 152 . وينظر «شرح الحماسة» 1 / 201، 1/ 203 ، 1/ 207 (خصوصاً).

26 ـ الديوان 52 ـ 54 .

27 ـ الديوان 187 ـ 190 .

28 ـ الديوان 52 ـ 53 .

29 ـ الديوان 271 .

30 ـ الديوان 37 ـ 38 .

31 ـ الديوان 318 ـ 324 .

32 ـ الديوان 320 .

33 ـ ينظر آخر الفصل السابق.

3 ـ المفاخر...

مقدمة

الفخر غرض بارز جداً في الشعر العربي، ولا بد من أن يكون مقبولاً ، وأن يقبل منه ما يدخل في المبالغة أحياناً، وللظاهرة أسبابها ـ بالطبع . ومنها الاجتماعي الصرف حين يفخر الشاعر بقومه ونسبه إعلاء لمجد قبيلته وقومه أو مقابلة لمفاخر أخر من قبيلة أخرى، أو دفعاً لسبة أو اختلاق أو مزاحمة . والشاعر حين يفخر بقومه فكأنه يفخر بنفسه يرفع من شأنها ويعلن قوتها . ولكنه يفخر بنفسه كذلك فرداً للأسباب التي تقع اجتماعية وحين يشعر بظلم أو حين يبلغ من رأيه بنفسه شأواً بعيداً في «العظمة». ولا بد من أن يلتقي الفخران ـ فيما بعد ـ في أغلب الأحيان.

وما هذه «المقدمة» إلاّ من وحي فخر سليمان بن سليمان النبهاني حتى لك ألاّ تعدها مقدمة وإلاّ ماذا تطلب ـ أو تنتظر ضمن طبيعة الأشياء ـ من شاعر شاعر سلطان سلطان يحكم بواقع قبيلي صرف عُمانَ كلها في القرن التاسع ـ العاشر الهجري ، بل يحكم على حين فتر النباهنة ونبغ فيهم نبوغاً استعاد به لهم الحكم وخاض المعارك وأضعف أقوى مناوىء في البلاد للنباهنة كلهم وهم الأئمة والفقهاء الذين لا يريدون الحكم في عُمان إلاّ لهم ، ولمن يجمع السلطتين ليحكم بمقتضى الشريعة فيهم والنباهنة في كر وفر، وظهور وتربص...

فإذا أضفت إلى ذلك كونه شاباً ورث من المال والجاه ما ورث ومن الفراغ والجدة ما يبطر... لمحت مفاخر أخرى ، يدخل فيها أي خلق يتخلق به ، وأي فعل يصدر عنه بما في ذلك ما قد لا يرتضيه مجتمع ينشد التقوى والتواضع والامتناع عن المحرمات.

وهكذا جاء الفخر أبرز ما في الديوان، ولو حسبت الأغراض الأخرى فروعاً منه وامتداداً له ومعاني لكونه سلطاناً بن سلطان ... لأمكن أن تعد الديوان كله فخراً بما في ذلك الغزل والصيد والخمر والحكمة...

وقد أدركنا كثيراً من هذا ونحن نقرأ شعره الذي يؤرخ - على غير قصد - لنفسه، فما كان ذاك في جملته إلا صورة من صور الفخر. وإذا لاحظنا أنه هناك لم يتعرض صراحة للأئمة وللفخر عليهم مقابل ما يضمرون - ويعلنون - له ولأسرته كلها من كره ونكران شرعية، فإننا نلاحظ ذلك هنا ، ملاحظة فقط لندخل في الموضوعات الغالبة على الفخر غرضاً .

1 ـ النسب

والنسب عند العربي، القبيلي خاصة، موضوع أساس، وشيء كبير لا غنى عنه في حياته ووجوده، فكيف إذا كان سلطاناً لعُمان وهي مهما تبلغ من التحضر، ومهما يكن الحكم السائد في تاريخها للأئمة والفقهاء وحماة الدين والمذهب... تبقى بطابعها العام قبلية، وقبيلية جداً في كثير من الأحيان، حتى لتدخل هذه «القبيلية» في موضوع الإمام المنتخب نفسه.

ولسليمان بن سليمان بن مظفر ما يشاء من الفخر القريب أو البعيد حتى لكأنه - أحياناً - يرسم شجرة - وقد عرفنا أن أسرته النبهانية يمنية الأصل جاءت - فيما يروي التاريخ - إلى أرض عُمان بعد خراب سد مأرب، ومعنى اليمنية الانتساب إلى يعرب بن قحطان بن عابر مقابل الحجازية - النجدية في نسبتها إلى نزار بن معد بن عدنان .

وحين يكون هذا «الفصل» ملاصقاً للفصل السابق في موضوع «التاريخ» ، نبدأ هنا - في النسب - من أبعد أعلام التاريخ والمواقع .

وها هي ذي «اليمن»، والفخر باليمن - ولا سيما إذا اتجه به صاحبه مقابل العدنانيين - يعني الملك - والمملكة. وللشاعر بعد ذلك أن يصعد بهذا النظام إلى ما يشاؤه له خياله[1]:

لنا تنتمي التيجان قد علمت به	معدٌّ ومرهوب الجنابِ الممنَّع
ونحن ملوك الأرض من عهد آدم	فخاراً لعمر الله غير مدفَّع
أولو كلّ معروف وملك معظمٍ	وتخت يماني وتاج مرصع

ص 148

فهو سليل أولئك الملوك، وأولئك الملوك حاضرون أحياء لديه فهم، في أقل

تقدير ـ في أسرته:

مازال ينحلُنا للملك من يمنٍ ... وللمكارم جبّارٌ فجبارُ

ص 111

و «جبار» هذه تذكر بمعرض الاعتزاز، على حين رأى الأئمة وحماة الدين في إطلاقها على النباهنة الحط من قدرهم والإعلان عن أهم عيوبهم فهم لا يكادون يذكرونهم ـ ذمّاً ـ إلا بالجبابرة[2].

وليكن، والمرء يفخر بما هو فخر لدى أنصاره، وبما هو قوة له، ويمضي يذكر هذا «الجد» البعيد أو ذاك ـ منفرداً أو مع أمثاله ـ في مناسبات لا تكاد تنتهي.

فهذا «عابر»[3].

ويكثر ـ على وجه يلفت النظر ـ الفخر بهود[4]، فهو «من جرثومة هودية»، وهود لديه ابن عابر وأبو أبي الخير قحطان

أنا ابن نبي الله هود بن عابر ... فيا لك عيصاً لا يشابُ بإدخال

ص 202

* * *

فهود نبي الله جدّيَ وابنه ... أبو الخير قحطانٌ أمانٌ مروَّع

ص 148

وأكثر ما يتبجح به لدى ذكره هوداً، أنه «نبي الله» وربما كان في ذلك مقابلة للشق الثاني من النسب العربي وفخره بالنبي محمد. ربما، وإذا لم يكن شعوراً، فلا يبعد أن يأتي من اللا شعور . ويذهب حيناً إلى أن يقول «أنا... سليل النبي ...» ويسكت، ومعنى ذلك أنه يقصد هوداً.

وهذا قحطان، وهو العلم الذي لا بد من ذكره.

أنا سيد الأملاك غيرَ مدافع ... وخلاصة الأقيال من قحطان

ص 329

* * *

إني لمن معشر ما ضيمَ جارهُمُ ... يوماً ولا نقضوا عهداً ولا غدروا

* * *

بنى لهم جدُهم قحطانُ بيت عُلى ... تنحط عن ذروتيه الأنجم الزُّهرُ

ص 125

ويلد قحطان «يعرب»[5]، وليعرب مكانه البارز لدى النسب والفخر بالنسب. وسليمان «سليل ملوك من عرانين يعرب»، و «زعيم ملوك من عرانين يعرب»

«هل الناس إلاّ نحن أبناءَ يعربٍ وهل سيِّدٌ إلاّ لنا هو تابع

ص 157

ويكررها:

هل الناس إلاّ نحن أبناءَ يعربٍ فسل تَعْلَمَنْ عن فعلنا في الأقالم

ص 272

ويشجب بن يعرب[6]

أنا ملك الأملاك من آل يشجب وسيدها والشمَّري المناصع

ص 157

وسبأ بن يشجب:

سبا سبأٌ جدي نساءَ معاشرٍ وسُمِّي به: فاقنيْ حياءَكِ واعذري

ص 115

هذا هو الملك، ثم هذه المدينة:

لنا سبأٌ والجنتان بمأرب[7]

ومن سبأ الملك حمير[8]

أنا ابن الملوك وصقر الملوك ومولى مُلوك بني حميرِ

ص 95

* * *

فمن يكُ عنا أيّها الناس سائلا فإنّا ملوكُ الناس من آل حمير

ص 131

ويذكر كهلان ، وهو يفخر به على أنه نجل حمير

وأخصَّنا ذو التاج حميرُ تاجَهُ دون الملوك ونجلُه كهلانُ[9]

ويذكر آخرين وآخرين على وضوح من تسلسل النسب وعلى غير وضوح، ويحفل خصوصاً من أجداده بتبَّع[10] وتُبّع ملك متوج:

أبى الله إلاّ أننا آل تُبّع ملوكُ ملوك الأرض من عهد عابر
ص 133

* * *

نحن التبابعةُ الغرُّ الأولى بذخوا ومهدت بمغازيها الأقاليم
ص 291

وتبع جدي، وأنا ابن العرانين من تبع، بل أنا التبَّع:
أنا التُبَّعُ المسعودُ قد تعرفونه إذا ذُكرت عند الفخار التبابعُ
ص 156

* * *

أنا التبع المسعودُ والسيد الذي يذل ضياغيم الأسود الضياغم
ص 269

وهو متنبه ـ وربما كان هذا بأسباب من التفاخر القبيلي والمحاجة ـ لما يرد في القرآن مما يمت لكسب الحجاج:

لنا أنزل الله المديح بقوله : أهم خير أهل الأرض أم قومُ تبّعِ
ص 148

وفي القرآن الكريم، «في سورة الحجرات 44 / 37: أهُمْ خيرٌ أم قومُ تبّعٍ من قبلهم».

ومعروف أن التبابعة من ملوك حمير.

ويرد من أعلام التاريخ اليمني: ذو نواس، وذو رعين، وذو يزن، وذو حدون، وسيف بن ذي يزن، والكيكرب[11].

ويرد عمرو وعامر ومالك ومازن وحارثة البطريق، وغسان، وبنو ماء السماء، والمنذران، وجذيمة الوضاح، وأسعد الخير[12].

ويرد في مفاخره من الأجداد فلان وفلان،

وأبرهةٌ ربُّ المنار ونجلهُ أخو التاج رامي كلِّ حيٍّ بمُذعِر
ص 115

وليس صحيحاً أو معقولاً أن يقصد أبرهة الحبشي صاحب الفيل، ففي ملوك اليمن في الجاهلية من اسمه «أبرهة» ـ أبرهة بن الصباح الحميري[13].

وهؤلاء كلهم من الأصل اليمني، من كان في اليمن نفسها أو من خرج منها وهم أخيراً من قحطان، ومفخر للشاعر.

وليلاحظْ أنه يفخر بهم ـ ويتبجح ـ بأسمائهم فقط، على أنها أسماء لها دلالتها العامة عند الناس ، وإلاّ فما زادنا كلامه علماً بهم وما أضاف سطوراً إلى التاريخ ولعله يجهل المهم من أمورهم، وأحسبه وقع ـ بذلك ـ في خطأ فخره بسيف بن ذي يزن إذ استعان بالفرس على الإحباش ، فرأى هو ـ من بعده ـ ما يسوِّغ له هذه الاستعانة ـ مرة أخرى ـ بالفرس على بني قومه وعشيرته، ورأينا كيف عدّ ورد كهلان لديه نجلا لحمير مع أنه نجل (ابن) سبأ وأخ لحمير.

والخلاصة، أنَّ سليمان بن سليمان النبهاني يبدأ بقحطان ، ويظل يكرره، ويمضي ينتقل في أولاده، وأولاده ـ لديه ملك عظام ـ مَنْ كان منهم ملكاً ومَنْ لم يكن ـ لأنّه متخذهم مفخراً كبيراً، ويقرّر لهم السيادة على الناس كلهم من عرب ومن عجم. ويصل بهم من الجاهلية إلى حدود الإسلام. وطبيعي ـ على سياقه ـ أن يكون القحطانيون سادة العرب في الجاهلية، سادة العرب كلهم، والمقصود بكلهم آل عدنان ـ الشق الثاني من العرب، الذين نسلهم عدنان ـ أخو قحطان.

وطبيعي كذلك، أن هذه المفاخرة بين آل قحطان وآل عدنان ليست جديدة، ولا تكاد تقف عند حد، تذكيها الروح القبيلية، ولكن الذي يمكن أن يُرى جديداً عند سليمان أنه قلَّ أن يقابل بين قحطان وعدنان، وإنما يقابل بين قحطان ونزار (بن معد بن عدنان) ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن العدنانيين الذين في عُمان (وفي أزكى خاصة) يعرفون بنزار والنزارية أكثر مما يعرفون بعدنان والعدنانية.

ثم إن الشاعر حين يرى النزاريين يمكن أن يغلبوه في الحجاج ـ والحجاج قائم، لأن الروح القبيلية قائمة ـ بالإسلام أي برسول الله(ص) الذي هو منهم من قريش، لا يدع الحجة تفلت من يده، وفي يده أن قريشاً آذت الرسول(ص) وحملته على الهجرة من مكة إلى يثرب، وأن أهل يثرب (وهم من قحطان) آووه وذادوا عنه ونصروه فانتصر بهم الإسلام. وهكذا يستحيل الحجاج قضية، وتستحيل القضية، قضية الأنصار (قحطان) ونزار...

...إني لمن معشرٍ ما ضيم جارهمُ	يوماً ولا نقضوا عهداً ولا غدروا

* * *

بنى لهم جدُّهم قحطانُ بيتَ عُلى	تنحط عن ذروتيه الأنجم الزُّهر
دانتْ لنا «تغلب» العلياء وانخضعتْ	«بكر بن وائل» وانقادتْ لنا مضرُ
أبلغ «نزاراً» وخيرُ القول أصدقه	والقول ينفُذ ما لا تنفُذُ الإبرُ
إن تفخروا برسول الله إن لنا	به كأضعاف ما أشياخُكم فخروا
طردتموه فآويناه وانبعثت	منكم كتائب تبغي حربه جَوَرُ

فصدّكم عنه منا معشرٌ أُنفٌ ... بيضٌ قلامِسُ مهما حاربوا ظفِروا
أتطردون نبياً بين أظهركم ... ببعثِهِ جاءت الآيات والسوَّر
ساورتموه وسمر الخط مشرعةٌ ... والبيض ترفضُّ من أطرافها الشرر
ذُدناكم عنه بالأسياف مصلتةً ... حتى استمرت له في يثرب مررُ
حتى أتى مدحنا في الذِّكر مشتهراً ... وأي مدح كذا في الذكر مشتهر
كم بين من حاربوه أو له طردوا ... وبين قوم هم آووه أو نصروا[14]

أجل، همّه، كما يظهر، النزاريون، وقد يكون السبب المباشر ما رأينا من وجودهم في عُمان نفسها، ثم لا بد من المناظرة أو المعايرة وتفخر نزار بابنها «رسول الله» لتسد الطريق على قحطان، وتجد قحطان مفخرها بالأنصار (من الأوس والخزرج في يثرب)... وقد يعزى إبعاد ذكر «عدنان» ـ هنا ـ لبعده في الزمن وفي المناظرة، زد على أنه أخ لقحطان.

وقد بدأ الفخر عاطفياً فزادت نسبة الشعر فيه ثم نزل إلى المحاجة العقلية فاقترب من النثر اليومي.

وإذا كان هذا موقفة لدى المبالغة بأجداده، ومبالغته بنفسه، فالطبيعي جداً أن يستصغر العدنانيين (أو النزاريين بمعنى أدق) وأن يُعلي عليهم قوم القحطانيين.

وإنه يعدد انتصارات أجداده (البعيدين) على أجداد عدنانيين أو نزاريين إن شئت وشاء: تميم، وتيم، وسليم ليقول.

وربَّ ملوكٍ في نزار أعزّةٍ ... هشمناهم هشمَ الثريد المكسَّرِ
ونحن سقينا «يوم بدر» رماحنا ... نجيع «قريش» واليهود «بخيبر»
تركنا سباع الجو يقضمن منهمُ ... معاصمَ لم يَبْسُطْن ذُلاً لمجتري
ويوم حُنين أيّد الله دينهُ ... بنا إذ دلفنا بالقنا والسَّنوَّر
وطئناهم بالأعوجية وطأةً ... بخيل المذاكى والقنا المتكسر
همطنا عديّاً همطةً يمنيةً ... خلطنا بها مُنهاضَهم بالمجبَّر[15]

ولا شك في أنه يبالغ بعزو النصر في هذه المعارك إلى «الأنصار» اليمنيين وحدهم ـ إذا حاكمناه منطقياً وتاريخياً، فما كان الأنصار في هذه المعارك وحدهم، فقد كان للمهاجرين ثقلهم وأبطالهم... ولكن الرجل يفخر عاطفياً مقابل قوم يباهونه، فيوغل ويتناسى التاريخ ويكاد يتناسى «الدين» نفسه، فليس هذا الذي قاله من الدين في شيء، وإن جاءه باسم الدين لأن مناظريه ينطلقون من الدين، ولأن لقومه (الأنصار) ضلعاً لا ينكر في النصرة.

وها هو ذا يقول :

برَّ الإلهُ بنا فأنزل مدحنا بالنص في آي الكتاب المنزل

ص 232

ويفخر بقومه على أنهم:

في الجاهلية سادوا العالمين فهم لأحمدٍ ولدين الله أنصار

ص 111

وله «تعريض» خاص يلمح به إلى غلبة آلِ قحطان على آل عدنان، كأن يعدد أمجاد قومه ويستشهد بهم للجواب، موجهاً السؤال إليهم على وجه من التعالي والإحراج

أنا ابن السابقين إلى المعالي فسل عن سبقنا قدْما نزارا

ص 103

وهنا يَرِدُ «قيدر» حين يلتبس على القارىء في قوله يصف وقعة شديدة تفرد بالنصر فيها:

وأحجمت الصيد من «يعرب» وهللت الشوس من «قيدر»

ص 98

جاء في هامش الصفحة: «وقيدر: لعله أراد قدار وهو رئيس ربيعة بن عمرو بن ضبيعة»

وقد جاء ذلك في القاموس المحيط قدار «كهُمام ابن سالف عاقر الناقة وابن عمرو بن ضبيعة رئيس ربيعة» وقال :

ونحن بُناة المجد فاسأل بمجدنا بني قيذر تخبرك أبناء قيذر

ص 118

وجاء في حاشية الصفحة: «بني قيذر: قيذر أو قيذار هو اسماعيل أبو العرب العدنانيين» وفي القاموس المحيط : «وقيذار بن اسماعيل أبو العرب»[16].

ومهما يكن فهو شرح يؤيد ما الشاعر عليه من أسلوب لم يوجه به السؤال مستشهداً بمجده، ويعلو هذا المجد إذا جاء في جواب «الأعداء» - وأعداؤه ، أو مناظروه نزاريون من عدنان .

ونترك هؤلاء الأجداد والبعيدين في الزمن إلى من هم أقرب إليه، والمقصود بالأقرب إليه النباهنة كلهم، ملوك النباهنة الذين سبقوه منذ عهد التأسيس. ولكن هذا لم يحصل، وإنما اكتفى- أساساً- بثلاثة أسماء للنسب، فالقبيلة الأم هي:

الأزد، والقبيلة الفرع هي : العتيك، ومن العتيك نبهان الجد ـ يذكر هؤلاء فخراً ورث عنهم المجد ، ويتجاوز أكثر ملوك المرحلة الأولى من الحكم النبهاني .

ويتشبث باسمه واسم أبيه (سليمان) وجده (مظفر)، وقد يصعد إلى سليمان جد أبيه وأخيه أبي المعالي كهلان ابني نبهان من العتيك من الأزد .

فهو «ابن مليك الأزد غسان»[17] وهو ملك أزدي، وأعلى ملوك الأزد

أنا أعلى ملوك الأزد قدراً   وأعظمها وأجزلها فخارا

ص 104

* * *

أنا سيّد الأزد الذي خضعت له   رقابٌ صعابٌ من ملوك أعاجم

ص 270

* * *

أنا الملك الأزدي عن الضيف مبطئٌ   وليس سوى جودي لدى الحاج شافع[18]

ترى متى كان الأزد ملوكاً؟ ومتى خضعت رقاب الأعاجم لسليمان بن سليمان؟ يمكن أن نفهم ملوك الأزد ملوك النباهنة السابقين ، أو أبناء غسان، ولكن كيف نجيب عن السؤال الثاني ؟

ويكثر من ذكر نبهان[19]، «أنا ابن نبهان المتوج من بني هود النبي»، «أنا ابن نبهان وجدي تبّع» ، «أنا ابن نبهان غطريف الملوك» . «أنا ابن نبهان بن كيكرب»

أنا ابن نبهان بن نبهان الذي   ملك الملوك وفي يديه زمانها

ص 286

وحين يكون «نبهان» جد أبيه، يكون كذلك جده:

«فجدي نبهان الهمام»

ص 132

أما جده الحقيقي (المباشر) فهو مظفر[20]:

أنا ابن سليمانَ سليلُ مظفَّرٍ   سليمانَ يا ابن المضاهى المضارع

ص 157

* * *

أنا سيد الأملاك بعد مظفرٍ   جدي وبعد أبي الهمام الأمجد

ص 87

ولا يفوته أن يذكر اسمه:

سليمان اسمي وهو اسم لوالدي ... واسم لجدي وهو ذو الشرف العالي

ص 202

* * *

وأنا سليمان المعظَّـ ... ـمُ في ملوكهم الأطاول

ص 282

ولا يفوته أن يذكر كنيته، فهو أبو علي

أنا المكنى أبو علي ... إذا توارى الفتى الكريم

ص 308

وهو فعلاً أبو علي:

ألا لله درُّ أبي علي ... لقد حاز الفصاحة والفخارا

أجلّ ملوك أرض الله قدراً ... وأفخرهم وأطهرهم نجارا

ص 21

ولكننا لا نعرف له ولداً، ولا يشترط أن يكون له ولد اسمه «علي» ليكنى بأبي علي[22].

ونعود لفخره بأبيه ونسبه:

حاز الفخار أبي وشيّد في العلى ... بيتاً يشق على السماك الأعزلِ

فسلكت في طلب العلى منهاجه ... بتكرم وتعمد وتفضل

وأنا ابن من ساد الملوك بأسرها ... من عهد غسان المليك الأفضل

ص 231

ويقف الإنسان حائراً وغير حائر بإزاء هذا الفخر البعيد المدى الذي يدخل في المبالغة، ومن مصادر الحيرة أنك لا تجد في التاريخ ما يجلو الملوك الذين يفخر بهم على الدرجة التي يعلو بها ولا على ما يقرب من هذه الدرجة فكيف من لم يكن ملكاً في التاريخ ، وإذا كان فلا يزيد عن جد لقبيلة أو شيخ لقبيلة .

أما أبوه سليمان ، وجده مظفر وجد أبيه سليمان فيكفي ألاّ يرد لهم ذكر في التاريخ، وأنهم لا يزيدون ـ في خير ما هم عليه ـ عن أسماء صغيرة مغمورة ربما لا يعدو سلطانهم اسمهم وبيتهم في زمن عُدّ في التاريخ النبهاني مرحلة فتور بين مرحلتين .

ولم يتبق إلاّ أن ننظر إليه بتحفظ شديد، ونقبله غرضاً من أغراض الشعر فيه

حماسة الشاعر، وهواه، واندفاعه، مما يمنحه حياة وقوة حتى يكاد المرء يمنح الشاعر شيئاً من صفة الصدق فيما يعتقده هو في نفسه وتصوره وهو يتصور عظمة هؤلاء الملوك الأجداد ليزداد عظمة بهم. وكثيراً ما جمع عدة ملوك في قصيدة واحدة أو أبيات متلاحقة أو في بيت واحد:

لنا سبأٌ والجنتان بمأربٍ ... ونزوى وما حازته جنبا سمائل
ومنا سليمان الهمام وظافرٌ ... ونبهانُ مولى كل خافٍ وناعل
وحارثة البطريق منا وعامرٌ ... وعمرو ابن ماء المزن كهف الأرامل
وقحطان رب التاج والملك يشجب ... وغوث الأنام الغوث رب الجحافل
وكهلان والعنقاء عنقاء يعربٍ ... وهودٌ نبي الله أفضل فاضل
فيالك عيصاً لا يشاب وسؤدداً ... تبذَّخ في فرع العلى والفواضل
سخانا يُغيض الغاديات وشكرنا ... يغنّي به الركبان فوق الرواحل
أنا الملك المغني المنيل الذي له ... تضعضع سادات الملوك الأفاضل
ترفّع عن هام السماكين منصبي ... وأزرت بفياض الغمام أناملي
وإني لعبء ما تقوم به العِدى ... وإن هي قامت بالجبال الأطاول(23)

2 ـ فخره بنفسه

وهو حين يعظم الملوك من أجداده على مر التاريخ يعظم نفسه، بل يزيد بالتصريح أنه أعظمهم كلهم مجتمعين أو متفردين، بل إنهم إذا كانوا مفخراً له، فإنه هو نفسه مفخر لهم، وكأنه لا يحتاج إليهم، فأنا، وأنا، وإني...

... وإنّي وإن كنتُ ابن سلطان يعربٍ ... ودعِّيسها في المأقط المتلاحم
فما ألبستني يعربٌ ثوب مفخرٍ ... أبى ذاك لي رب العلا ومكارمي
ولكنني أشفي صداها وأبتني ... علاها وأغشى من سناها بصارمي
وفخر ملوك الأزد بي لا بهم غدا ... فخاري وإن كانوا كرامِ الأكارم
بهرتُ أولي البأس المحامين نجدةً ... وأخجلتُ في جودي ثقالَ الغمائم
فما عامرٌ إن صُلتُ يوماً بعامرٍ ... ولا حاتمٌ إمّا بذلت بحاتم
أجود بما أحرزتُ كي أحرز الثنا ... ولم يثنني في الجود لومة لائم
فكَم قُدت من طِرفٍ جوادٍ لشاعر ... وكم قُدت من جيش أزبَّ لغاشم
تُريق الدِّما من قبل سيفي مهابتي ... ويسبق سيفي الموت نحو الغلاصم
أمرٌ من الموت الزؤام توعدي ... وأنفذ من شهب النجوم عزائمي
وأحلى من الشهد المصفى خلائقي ... فسل ، تُنْبَ إما كنتَ لست بعالم

وقد أدهم الأعداء قسراً بصيلم | يمشّي الجيادَ الجُردَ فوق الجماجم
على متن محبوك السَّراة مجنَّبٍ | طويل عماد الصدر ، أسوق ، ساهم
سليم الشظا عاري النسا متمطر | أقب رحيب الصدر عالي القوائم
وفي راحتي القرن الخشيب الذي به | أجُرُّ وأُردي كل أبلح ظالم
سل الصيد من أملاك غسان كلها | ومن ساد منها في بلاد الأعاجم
أهل لهم معشارُ جودي ونائلي | وهل أحرزوا ما نلتُم من مكارم
أنا سيد الأزد الذي خضعت له | رقابٌ صعابٌ من ملوك أعاجم
أجلُّ أخي تخت وأشرف مالك | وأكرمُ ذي جود وأعدل حاكم
هل الناس إلاّ نحن أبناء يعربٍ | فسل تَعْلَمنْ عن فعلنا في الأقالم
وسائلْ بنا حيّي معدٍ ومازنٍ | وسائلْ بنا فخذي نمير ودارم
لَنَحنُ أحق الناس بالحمد والثنا | وأولاهم بالملك ضربة لازم
ونحن الأسود الغُلب والناس غيرُنا | ضِباعٌ أتُحكى أضبعٌ بضراغم
ونحن البُزاة الشهب والناس كلهم | حمامٌ فيا ذُلاّ لها من حمائم
لنا الملك والتيجان والتخت والعلى | على كيد ذي خترٍ ورغم مراغم[24]

ولا يني يفخر بنفسه، ولا يعجز أو يكل ، ولا يجد حرجاً أو خجلاً. وهو هنا، كما كان هناك، يعيد ويبدي ويمزج فخراً بفخر وحاضراً متصوراً أو قائماً بماض متصور أو قائم ولكنه يزيد في تحديد الصفات أو التفصيل في معانيها، وهي قائمة أساساً على أمرين هما : الشجاعة والكرم، وهي القاسم المشترك للفخر العربي (وللمدح كذلك...) ولكنه يزيد ـ كما زاد فخره بالنسب ـ على من سواه حتى لا يبلغه في ذلك أحد فكأنه عشرة من أمثال عمرو بن كلثوم مضافاً إليه كونه ملكاً يتحدث عن نفسه ولا يقصر حديثه عن قومه. وتعجب لتفتيته المعاني الجزئية خلال الموضوعين الكبيرين ، وإعادة المعنى الواحد بصور متعددة مختلفة.

ولا يعزى ذلك إلى أنه شاعر ملك فقط ، فقد سبقه في الزمن من هو شاعر ملك، أو شاعر أمير ولكن هؤلاء، ولنذكر ابن المعتز والمعتمد بن عبّاد وأبا فراس الحمداني لم يغالوا مغالاته، وانهم ذكروا أحداثاً بعينها أكثر من الانتفاخ بالتعميمات .

ولا بد ـ إذاً ـ من بحث السبب فيما هو ملازم لديه مع الشعر والملك، أقصد الروح القبيلية، فكأن عُمان التي هو فيها ما زالت قبائل ، وللفخر منها مكانه الأول، المقبول ـ وربما ـ المطلوب من الشاعر ومن الناس الذين حوله.

وإذا كان الجانب الذي يفترض فيه أن يكون أقل قبيلية (وأكثر حضارة) هو

جانب الأئمة والفقهاء، فإن أهل هذا الجانب كانوا خصومه اللّد، وحين يكون الأمر كذلك يصير الفخر لدى الملك (الدنيوي) مظهراً في المنافسة ومستنداً واستعلاء حتى لو لم يذكر منافسيه بالاسم.

وهكذا برز سليمان بن سليمان بروح المتنبي ولكن في ثوب ملكي قبيلي.

ثم لا بد من ملاحظة أخرى، تدخل في علم النفس إذ يقع على الرجل الفخار، فلا تعدم ـ حينئذ ـ من يعزو الظاهرة إلى شعور بعقدة من عقد النقص في مجتمع لم يعد يرى للنباهنة مقاماً، وبإزاء أئمة لا يكتفون بالفخر بالنسب وبالنفس، أو إلى شعور بالكمال يفقد معه صاحبه حسه بالآخرين ويفقد به آخر قطرة من التواضع الحقيقي ، فيسجل ضرباً من الطيش والحمق والسفاهة.

ولكننا لسنا في هذا، لأننا بإزاء شاعر ملك في مجتمع قبيلي يقبل الفخر ويطلبه، فلنبق في مواجهة الفخر كما هو، وكما هو غرض سائد، وكما هو غرض جوّد فيه سليمان بن سليمان وأبدع .

ونكرر أنه يجمع ـ دائماً ـ في القصيدة الواحدة الفخر بنفسه والفخر بنسبه لأن الاثنين متكاملان لديه إذا لم يكن الفخر بالأجداد صيغة أخرى للفخر بالنفس .

ولا أدل على أنه لم يأت ـ بتفاخره ـ في مجتمعه شيئاً إدّا ، من أننا رأينا شعراء من العصر النبهاني يفخرون مع أنهم مدّاحون متكسبون، فما أولى شاعر نبهاني ملك بأن يزيد ويزيد في الفخر[25].

ثم دليل آخر، قوامه شهادة يدلي بها إمام علامة جاء بعد سليمان بحوالي خمسة قرون ليقص تاريخ عُمان، وهواه وعقيدته واهتمامه كلها مع الأئمة، وسخطه على سليمان، ولكنه ـ مع هذا ـ وقف من الفخرين: بالنسب والنفس موقف المعجب المقدر لسليمان فصاحته وبلاغته . ذلك الإمام هو أبو محمد نور الدين عبدالله بن حميد السالمي مؤلف «تحفة الأعيان بسيرة عُمان» الذي قال :

«... ثم بايعوا بالإمامة لأبي الحسن بن عبدالسلام النزوي ، وأقام دون السنة وخرج عليه سليمان بن سليمان النبهاني ـ وهو صاحب الديوان الغزلي الحماسي أنبأ فيه عن فصاحته وأبان فيه عن بلاغته ، ومن ذلك قوله :

... أنا أجلُّ ملوك الأرض مرتبة	نعم وأكثر أملاك الورى همما
مناقبي كنجوم الأفق في عدد	ونائلي لوفودي يفضح الديما
كالليث بأساً إذا الليث الهموس سطا	والبحر جوداً إذا البحر الخضم طما

* * *

أنا ابن نبهان غطريف الملوك فهل | مفاخر لهمام للسماء سما
قدت الجيوش، وهجنت الملوك، وأعـ | طيتُ الخيول، وسدت العرب والعجما
سل عامراً وبني عَمْرٍ وكعب وسل | شبانة وعزيزاً من لها صدما
وجابراً ويزيداً والعباد وسل | قضاعة ليس ذو جهل كمن علما
يخبرك من شئت منهم أنني ملك | أعطي الجزيل وأجلو ظلم من ظلما
لو صور الموت لي قرناً وبادرني | إذاً لجندلته ملقاً أو انهزما
أعدمت بالسيف موجود الطغاة كما | أوجدت بالجود والإحسان من عدما
إذا نطقتُ بفضلي قال حاسده | أصدق به ولسان الحمد لا جرما

وأكثر ديوانه على هذا النحو، وله رائية ذكر فيها مفاخر أجداده تزاحم المعلقات السبع بلاغة وتزيد عليها عذوبة ورشاقة قال في أولها:

أللدار من أكناف قوّ فعرعر | فخبت النقا بطن الصفا فالمشقر

(...) [ثم فخر بنفس] ثم ذكر مفاخر ملوك اليمن من سبأ ومن بعده (...) ولولا خشية الإكثار لذكرنا القصيدة بطولها».

هذه شهادة عالم علامة في بلاده ومذهبه وفيها دليل على أن سليمان حين فخر وبالغ في الفخر لم يأت شيئاً إدّا، خارج منطوق مجتمعه وقومه وعصره.

وقد قلنا إن ديوانه يكاد يقوم على الفخر. وقد رأينا في الأمثلة السابقة (هنا) غير قليل من شؤون فخره بنفسه خلال فخره بأجداده البعيدين والقريبين، ورأينا فخره الخاص بموضوعين أساسين للشجاعة والكرم، وللشجاعة في الشعر اسم خاص هو الحماسة وسليمان من شعراء الحماسة وهو منها في درجة متقدمة. وإذا كانت الشجاعة التي تحدث عنها ـ هنا ـ عامة، فقد رأيناه من قبل[27] خاصة في معارك بعينها تكون المادة الأساس من الفصل الذي تتبعنا فيه تاريخه من ديوانه لدن حروبه مع عُمان، ومع أخيه، وأنصار عليه من هنا وهناك.

3 ـ مفاخر أخرى

وإذا كانت الشجاعة والكرم أبرز موضوعين، فمعنى ذلك أنك لا تعدم لدى سليمان مفاخر أخرى، حتى لو جاءت على قلة وندرة ضائعة في خضم النسب والشجاعة والكرم.

ومن ذلك العفو والحلم، والصدق، والفضل، وكبر العقل، وطلب الحمد بأسبابه، وهنا تلتقي أكثر من صفة، حتى لو كانت هذه الصفات مشتقة من الكرم

ومنبثقة عن الشجاعة، والجامع في الأمر هو الطموح إلى أن يكون «البطل» في مفهومه ومفهوم مجتمعه وفي خلاصة النظر في التاريخ وعناصر البقاء والذّكر:

... ولو شئت كفّاني وزيرٌ وخادمٌ — ولم أُلق نفسي في يد الهلكات
ولكن نفسي مُرّةٌ ليس ترتضي — سوى بيعها في الحمد والغَمَراتَ
براني ربُّ العرش ذا خُنزوانةٍ — شديداً على الأعداء ذا نقمات
أقول فلا أعيا بشيءٍ أقوله — إذا لم يفِ ذو موعد بعِدات
تناط حياة الدين والعلم والتقى — وعِزُّ عُمانٍ كلّها بحياتي

ص - 62

أما السعي إلى الملك والظفر به فقد مرا معنا ومعهما ومنهما عزة النفس والمغامرة وكأنهما طبع فيه وخلقه، وإلاّ فما كان أغناه عن هذه المتاعب وهو الغني الثري الذي يستطيع أن «يقعد» ويجد ما يتمنى وحوله من يخدمه . وهو في أية حال قول وفعل وإذا وعد وفى .

وربما كان من أهم جديد في هذه الأبيات ـ وما يعد على قارىء الديوان أن ينتظره ـ هو شعوره الذي يمكن أن نسميه الوطني، أي شعوره بالمسؤولية عن عُمان كلها، وعن عزها، وهذا العز منوط بحياته. وكأنه يريد أن يقول: ومن هنا كانت معاركي وحروبي، ومجابهة الأعداء من كل نوع.

ويمكن أن يكون هذا مفهوماً، ولكن الجديد جداً شعوره بالمسؤولية الدينية.

وإن حياة الدين والعلم والتقى منوطة بحياته، وكأنه يجابه بهذا حجج الجانب المناوىء المعادي الذي لا يعترف بالنباهنة أو سليمان نفسه لأنهم جبابرة ولأنه جبار ، فهم يصرون على أنه غير شرعي، وأن الشرعي هو الذي يبايعونه دينياً.

ولكننا لم نر في ديوان سليمان فضلاً عما في كتب التاريخ ما يشرح لنا مقولته، أو يؤيدها في الأقل[29].

وهو بعد هذا قد يعتز بالله وبرسوله وهو يعتز بنفسه أو يقبل على حرب أو ينتصر في حرب. وهذا غير هذا .

ويتذكر الدين مرة ثانية، فلا يكاد يعتز بهود إلاّ ويقرن به صفة النبي، حتى إذا ثار جدال وحجاج مع النزاريين أعلن فضل الأنصار من قومه القحطانيين... وهذه كذلك غير مقولة «تناط حياة الدين والعلم والتقى» بحياته.

ومع هذا، فليس من حقنا الشك المطلق في حسن نيته في الأقل، أو أن ننسى ما يفرضه التاريخ والتأمل والمجتمع من إجالة الرأي والتزام ما يجمع عليه الأكثرون،

فليفخر بالشجاعة والكرم، وليفخر كذلك بما يزينه معهما فإذا قال: «وأنا أخو الكرم...» فليقل:

وأخو الحُلومِ إذا رمت	ريحُ السَّفاهة بالحليمِ
خلقي أرقُّ من النسيم	وإن ونى مر النسيمِ

ص 257

وليقل بعد أن تمكن من أعداء له:

عفوت وكان مني العفو خُلقا	وذلك خُلْق مفضال هُمامِ
أنا ابن السابقين إلى المعالي	وأعيان الأفاضل والكرامَ
أبيد المال كي أحوي ثناءً	وأشرق كل فجٍّ بالقَتام
وأعطي الخيلَ والأدَمَ المهارى	ولم أجنحْ هنالك للملام
وقد أيقنت أن الحمد يبقى	ولكن لا بقاءٌ للحُطام
ولا كالشكر يحويه جوادٌ	بمالٍ لا يخلَّد بالدوام

ص 255

فهذه صفات مكملة للمثل المطلوب، وليس في لهجة صاحبها ما يشي بكذبه في مطمحه إليها أو ما يشير إلى أنه يقولها نفاقاً، ومن عساه ينافق وهو السيد الغالب!

إن الأبيات تكتنز أريحية وعقلاً يرفعان من شأن صاحبها.

وعجيب أن يصل بعد ذلك الفخر بأجداده، إلى أن يقول:

دع الفخر بالعظماء الكرام	فبالفضل يُفخر لا بالنسب

وهذا منتظر مفهوم إذا علمنا أنه يعارض مقصورة ابن دريد، وأنه خبر شر الدنيا وخيرها وهو عشر الأربعين من عمره.

وكان الرجل حين يقول الشعر ـ وقد قاله جميلاً أصيلاً ـ لم يكن ليتعالى عليه وإنما عدّه مفخراً، ومع الشعر الخطابة:

لي في الفصاحة حكمةٌ وبيانُ	وبلاغةٌ لم يحوها لقمان[30]
فإذا قرضتُ فما زهيرُ وطرفةٌ	وإذا نطقت فما الفتى سحبان
ولقد جرين على لساني وثّباً	جري الأتيّ رمت به الأقران

ص 320

* * *

وإذا البديعُ من القريض تغلَّقتْ	أبواب مَجْدِلهِ على الأذهان

ودعوته ألقى المفاتح طائعاً طوع الذليل إلى عظيم الشان

ص 339

وحسناً فعل «أبو علي» فقد حفظ بشعره تاريخه على حين ضاع - أو أضيع - تاريخ الآخرين، وأضاع التاريخ تأريخ الشاعر نفسه، وتاريخ الشعراء المعاصرين له. فليس من المنطق أن تخلو عُمان لأمد غير قصير من الشعراء. وليست المسألة مسألة منطق فقط ، بعد أن كان لنا الدليل المصدق في فخر سليمان بن سليمان بما كان يغدقه على الشعراء وهو السلطان الممدَّح ، وحين يكون على تلك الدرجة من الكرم عموماً ومن رعاية الشعراء خصوصاً بسد حاجاتهم وما يزيد على حاجاتهم، فلا بد من أن يكونوا.

فالسلطان الشاعر إذ يفخر بشجاعته وكرمه فهو من يسعر الحرب، ومن..

ومن يَهَبُ الخيلَ مجنوبةً لـهـادي المديـح لأبـوابـه

ص 32

والمجنوبة هي «الخيل المقرونة بالإبل»

وها هم أولاء الشعراء يغدون ويروحون عليه وعنه

أنا منهل الشعراءِ هذا باكرٌ غادٍ عليَّ وذاك عنّي رائح

ص 64

وقد نفقت لديه سوق شعرهم:

بضائع أهل الشعر عندي نوافق إذا كسدت في الخافقين البضائع

ص 154

وهو يهديهم مع الخيل والجمال أثواباً

كم شاعر أهدى إليَّ قريضَه ففاء بأثواب وخيل وجامل

ص 214

و «كم» هذه تفيد التكثير كما هو معروف ، فإذا سليمان «كعبة الشعراء»[31] ومقصدهم ، وإذا منازله منازل «المهدى المديح»[32].

كلام لا يشك امرؤٌ في صدقه ، ولكن أين ذاك الشعر ؟ وأولئك الشعراء ؟ تبحث ولا تجد ولولا فخرُ السلطان الشاعر بإكرامهم لضاع الأثر.

كل ما وصل إلينا قطعة جاءت في ديوان سليمان نفسه، ولم يذكر معها اسم صاحبها، وقد رأينا مطلعها:

ألا لـلـه درُّ أبـي عـليّ لقد حاز الفصاحة والفخارا

أجلُّ ملوك أرض الله قدراً وأفخرهم وأطهرهم نجارا

ص 133

جاء في الديوان: «وقال صاحب هذه الأبيات، وأظنُّها لغيره والله أعلم»، وقال محقق الديوان : «هذه القطعة لرجل يمدح الشاعر النبهاني كما يدل عليه مبناها ومعناها» . ولكنني لا أستبعد أن تكون القطعة للشاعر سليمان النبهاني نفسه، صاحب الديوان، وفي نَفَسِها ما يدلّ عليه، وهي صورة من إعجابه بنفسه.

وبعد

فلسليمان بن سليمان من المفاخر مالا يقف عند حد، أو ما لا يحد بغرض واحد اسمه «الفخر»، وقد سبق القول إن ديوانه يقوم على الفخر، وإن بدا - أو يبد - خارج هذا الغرض ، إنما هو منه أو إليه. وحسبك أنه يفخر بشرب الخمر وبالصيد وبالخيل، وبالنساء...

ومن هذه ما هو وجه ثان لمفاخره بالنسب والشجاعة والكرم، ومنها ما هو منها برأيه. في الأقل، فضلاً عن مفاخره بالحلم والفصاحة والحكمة.

الهوامش

1 - يكاد «الديوان» يكون - كما هو طبيعي - المصدر الوحيد أو الرئيسي في دراسة الشعر والوقفات الطويلة عند أغراضه، ولذا رأيت المفضل في الإحالة إليه - أو عليه - تذييل الأبيات - أو البيت أحياناً - برقم الصفحة في المتن نفسه، عند آخر الأبيات - المستشهد بها لنتجنب العودة إلى ذيل الصفحة أو الفصل بما يمكن الاستغناء عنه إذا كان الغرض العلمي هو التوثق والتوثيق.

وربما وقع شذوذ عن هذه القاعدة لدى ضرورة، ومن هذه الضرورات أن يصحب الإحالة شرح أو تعليق، أو مصدر آخر.

2 - تحفة الأعيان 1 / 303، 305، 327، 328، 334 .

عُمان تاريخ يتكلم 152 .

3 - الديوان 133، 202 .

4 - 109، 132، 174، 234، 153، 148، 97، 139، 216، 218، 278، 286 .

5 - 177، 130، 114، 217، 241، 271 .

6 - 96، 119، 216 .

7 - 215، 118 .

8 - 114، 234، 324 .

9 - 324 في هامش الصفحة من الديوان «حمير بن سبأ بن يشجب ملك العرب. وكهلان بن سبأ بن يشجب أخو حمير» وعلى هذا فكهلان بن سبأ وهو أخو حمير.

وتؤيد ذلك الشجرة المثبتة ص 8 من «الوسيط في الأدب العربي» تأليف الشيخ أحمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني، ط 16، القاهرة، دار المعارف، د .ت (ط 1 في ذي القعدة1335 / أغسطس 1916 .

ويرد كهلان في الديوان 216، 218 .

10 ـ 139، 232، 70، 179، 329 .

11 ـ 331، 332، 119، 323، 338 .

12 ـ 115، 119، 130، 147، 153، 241، 211، 38، 70 .

13 ـ جاء في حاشية الصفحة 115 من الديوان: «ليس أبرهة في سلسلة نسب الشاعر، فلعله يريد أبرهة بن الحرث الرائش الذي يقال له ذو المنار».

وجاء في «أعلام الزركلي»، بيروت ، ط 4، 1979 (دار العلم للملايين) 1/ 82: «أبرهة بن الصباح الحميري: من ملوك اليمن في الجاهلية. ولي بعد حسان بن عمرو، واستمر 73 سنة، وكان عالماً جواد، وهو غير أبرهة صاحب الفيل (...) فذاك حبشي لا صلة له بالعرب».

14 ـ 125، 126 ووردت في الديوان: تغلب العلبا، والخطأ ـ المطبعي ـ واضح.

وفي هامش ص 126 «مدحنا. أي: مدح الأنصار الأزديين جاء في الذكر، في سورة الأنفال 8/ 72 «والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض» وهم الأنصار» .

ووردت عدنان مرة ص 324 .

15 ـ 116ـ وقد وردت ص 116 «تميم» و «تيم» و «سليم» في ثلاثة أبيات سابقة على هذه الأبيات .

16 ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي: قدر، قذر.

17 ـ 132 .

18 ـ 157 وفي حاشية الصفحة: «أنا الملك: بحذف همزة الاستفهام الإنكاري أي أأكون مبطئاً عن الضيف وأنا الملك الأزدي ؟».

19 ـ الصفحات في الديوان على التوالي: 64، 232، 260، 323 .

ويقول ص 311:

أنا ابنُ نبهانَ ماءِ السماء   سلالة هود عليه السلام

فنقرأ في حاشية الصفحة: «ليس نبهان هو ماء السماء وإنما هو عامر أبو عمرو مزيقيا» ونقول قد يقصد بماء السماء عموم الكلمة، أي أنه غيث أي أنه كريم.

20 ـ والمظفر لديه سلطان اسماً وفعلاً، على حين المفروض أن يأتي في الأقل، تاريخاً، ضئيل الشأن، فهو من أيام الفترة. وتنظر ص 338 . وينظر لسليمان 132، 231 .

21 ـ من أبيات وردت في الديوان ص 133 مضطربة النسبة له أو لغيره.

22 ـ ولا نعرف من ولده في التاريخ، فالتاريخ يترك فجوة بعد تغريقه حتى تبدأ المرحلة الثانية من حكم النباهنة، ويتصدرها: سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان ثم فلاح بن محسن...، ولا نستطيع الجزم بـ «سليمان» الوارد هنا، فلعله سليمان بن سليمان ، ولعله سليمان الجد الأبعد.

23 ـ 23، 215، 216 . ينظر 205، 119، 237 .

24 ـ 270، وفي الحاشية «فما عامر: أي عامر بن مالك ملاعب الأسنة».

25 ـ ينظر ديوان الستالي، وتحفة الأعيان 1/ 303 وكتاب الدكتور علي عبد الخالق علي ـ القاهرة، 1984 . وينظر ديوان الكيذاوي (موسى بن حسين بن شوال) عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة، 1405/ 1985 .

26 ـ تحفة الأعيان 1/ 326 ـ 327 .

27 ـ ينظر الفصل الثاني ـ أعلاه .

28 ـ صفحات ديوانه على التوالي 255، (5، 6)، 5، 133، 255 .

29 ـ وإن كان يلمح إلى «إيمان» أحياناً.

30 ـ 318، وفي ص 237 .

وأنا خطيبُ أولى البلا غةِ إن ترامت في المحافل

31 ـ ص 226 .

32 ـ 325 .

4 ـ راية وموذية

مقدمة

في غزل سليمان بن سليمان النبهاني ما هو عام تقليدي شأن كثير غلب في الشعر العربي. هو هذا الذي قاله في مرحلة البدء بالنظم والتجريب والقرزمة. ولم يكن التغزل صعباً عليه ـ شأن كثيرين قبله وبعده ـ رصفاً لمعاني مطروقة وصباً لعبارات موروثة وادّعاءً لحُرقٍ مستعارة: وله مما قرأه وحفظه وأعجب به رصيد، ومن عرائس الشعر ـ وفيهن هند ودعد وخولة ـ مادة[1]. ثم تأتي العيون والقدود، والجيد والخدود، والشعر والنهود، ويأتي الأرق والدموع . ولا بأس في أن يقف على الأطلال من لم يقف ومن لم تكن له «حبيبة» ومع الأطلال الظعن والناقة والصحراء...

لسليمان بن سليمان النبهاني غزل من هذا الغزل، قاله يوماً ما، وقد رأينا أمثلة منه[2]، ومن شأنه ألا يمنح صاحبه قيمة، ولا يدعو الباحث إلى الوقفة عنده، ومن محاسن حاله عند سليمان أنه قليل، وما أسرع أن غلب عليه ـ لديه ـ ما هو خاص به بمعنى ما نظمه عن علاقات واقعة بنساء من قومه يشي بواقعيتها شعره.

ومنهن عمرة (16 ـ 22) من «وادي شجب» وهو «واد بنزوى» وفيه «روضة المظ»

... ليالي عمرةُ تُسبي الحليمَ	بأشنبَ كاللؤلؤ المنتجبْ...

ومنهن مكتومة (106 ـ 111)

... أيامَ مكتومة لم يثنها عذلٌ	عني ولم يغشَّ صفو العيش أكدارُ
هيفاء عجزاء مصقول ترائبها	بيضاء ناهدة الثديين معطار...

ومنهن «أم شائق» بالنجدين... (160 ـ 163) و«صفوة» و«ضمان» ـ 325.

ويمضي الخاص يتوطد فيقوى فيه النسيج وتتضح الشخصية، ويتحدد باثنتين من المجموع غير المحدود.

الخاص هو الجدير بالدرس لأنه الأصيل الذي أجاد فيه صاحبه وأبدع حين تهيأت له التجربة الحقيقية ـ بعد عوامل الموهبة والأداة والتدريب ـ فأتى بما لا يجد معه باحث ضيراً في أن يذكر به من أعلام الغزل امرؤ القيس وعمر بن أبي ربيعة. وإذا كان لسليمان منهما المغامرة والترف فقد افترق عنهما بالجد في حبه الذي وقع فيه أو عليه من شوق وحرقة ولوعة البعد بما لا يمنع من تذكر جميل بثينة والشريف الرضي. فكان غزل مزيج بين عبث اللّاهي وألم المفارق.

وإذا كان في كلمة «مزيج» ما قد يقلل الشأن، وكان في «المقارنة» ما قد يجور على الحقيقة، فالواجب أن نقرر له الأصالة والإبداع فيما قال بامرأتين لهما الشأن الأكبر ـ أو الوحيد ـ في عالم الحب من حياته، والواجب ـ كذلك ـ أن يكون لشعره فيهما شأن في تاريخ الغزل العربي بما كان اللازم أن يتنبه ـ وينبه ـ له المؤرخون والنقاد ويدخلوه في «الغرض» وسياقه.

وهكذا.. بدا أن «كلمة» الغزل قليلة بوصفه بعدما ابتذلته «القرون» والألسنة والأقلام من شأنها، وبدا ـ كذلك ـ أن أسمي «راية» و «موذية» ـ حبيبتي الشاعر المتواليتين على قلبه، أنسب له في الدلالة على «الأصالة» من كلمة «الغزل» .

راية ـ ويرخمها: ياراي ـ وموذية ـ بتخفيف الذال والياء كما يدل الشعر، ويرخمها: أموذي ـ أم موذية وراية ؟ الذي يدل عليه الشعر بما لا يدع شكاً لعارف أن سليمان أحبهما متواليتين ـ بعد فاصل من الحزن على الأولى والأسى والاضطراب، وكان الحب عميقاً، والشاعر صادق فيه، والأحداث الجارية خلاله واقعة أو قابلة التصديق في الأقل.

ويأتي السؤال: أيتهما الأسبق في التاريخ ؟ قلت مرة: راية ، ثم عدلت فقلت: موذية، معتمداً على أن شعره في راية أكثر نضجاً، وأمتن نسجاً، وهو فيه متمكن مسيطر كمن ودّع عهد البدء والتدريب والتقدم الأول المحسوس. وقد ربطت هذا النضج بالزمن. ولنقل سلفاً ـ إن حبه راية أعمق أثراً من حبه موذية.

ـ هل يكفي هذا ؟

ـ قد . ولكنَّ للشاعر أبياتاً يعدد فيها صاحبات له من قصيدة يقول فيها:

لمن الرسومُ تأبدَّت بعُـمـانِ	فبدت كخط مصاحف الرهبانِ
دار «الصفوة» والخريدة «راية»	و«ضمان» قبل حوادث الأزمان

بيض كواعبُ كالبدور نواعمٌ   لُثن المروطَ على ذرى الكثبان

ص 325

فذكر «صفوة» و «ضمان» ـ ولا شغل لنا بهما هنا، لأنهما عابرتان في حياته أو في شعره ـ وشغلنا في أنه ذكر «راية» ولم يذكر «موذية». ولا مانع فنياً يفترض للحيلولة دون رصفها في التعداد ، لا سيما وهي عنده في مكانتها من خاطِره وقلبه. وفي هذا ما لا يمنع باحثاً من الاستنتاج بأن الشاعر نظم هذه القصيدة بعد حين من علاقته براية وقبل حين من علاقته بموذية، ويسير ـ بعد ذلك، وعلى ذلك ـ في الحديث عن راية قبل الحديث عن موذية.

ولا بأس في ملاحظة أن باحثاً محققاً متأنياً قرأ الديوان في مخطوطاته وأعده للطبع تحقيقاً وأشرف على طبعه وأدرك مكانتيْ راية وموذية من الشعر والشاعر هو الأستاذ عز الدين التنوخي كان قد وصل إلى أن راية سبقت موذية[3].

على هذا سنسير، حتى يثبت العكس ـ أما أن الشعر في راية أبعد غوراً وأشد أَسراً فقد يرجع إلى أن حب الشاعر إياها كان الأعمق وأنه الأول في الواقعية، ونترك مسألة القوة والضعف في الشعر لأننا واجدون أن في الشعر الذي قيل فيها ما هو عميق متين كذلك.

1 ـ رايـة

الفتى سليمان بن سليمان.. الأمير، الملك، الشاعر المترف الجريء، مرتاد المنازه، الباحث عن المتع، المتعرض للحسان، المعشَّق، الهازل غافلاً عن جد يقع عليه.

والمنازه ما بين نزوى وبهلى كثيرة، هو أعرف بها، وبمرتاديها أو مرتاداتها، والمجتمع يسمح بذاك فيما يدل عليه الشعر في الأقل ، ولعله يسمح بما هو أكثر من ذلك حتى لو كان الفصل بين الجنسين واقعاً مقرّراً . والفصل مهما يبلغ لا يمنع الجريء المترف والجريئة المنعمة من الحد منه أو اختراقه بشكل وآخر ، وتتصل ـ أو تنفصل ـ بعد ذاك الحكاية الخالدة.

وها هم القوم في منتزه «الصفيحة»[4] يرتادها الشباب والشواب بحسن نية أو بسوئها. ويتردد عليها ـ فيمن يتردد ـ الفتى الملك الشاعر سليمان فيصبي «الغواني والعذارى» :

إذا أبصرنني يختال زهواً   بي المُهر المطهّمُ حين سارا

برزن من الخبا متتابعاتٍ   كما قد يقذف الزندُ الشرارا

ص 100

وإذا كنّ يعرفن فيه شبابه وجاهه فهو بإزائهن في الأوج من الذوق العربي في المرأة منذ العصر الجاهلي، وكما صوره شعراؤه ممثلين أولاً بامرىء القيس وطرفة... والمهم المهم فيها ضخامة الأرداف (فهي كالدعص) ضخام الأرجل (مفعمات الخلاخل) (ص 209) وضيق الخصر واعتدال القامة ثم الشعر الأسود كالليل، والجيد والعين، والنهد... وبياض البشرة.

يلثن المروط الأتحميات والمُلا بأمثال أدعاص النقا المنطوب

* * *

بيض كواعب أترابٌ يرنحها روق الشباب وماء الدل والخفر

ص 124

وتبرز بينهن من يقع عليها هواه تتفق مع أترابها في الصفات العامة فهي «غرثى الوشاحين» - مثلاً - مع صفات خاصة قد تختلف قليلاً من شاعر إلى شاعر على حسب الظروف.

إذا تثنت ولاحت وهي سافرة حار القضيب وحار الدعص والقمرُ

تهوى الغزالة منها حسن مبسمها ويعجب الظبي منه الجيد والحور

ص 124

* * *

أناةٌ هضيم الكشح بيضاءَ رخصةً لها جسدٌ كالشمس أبيضُ ناصع

يضيق الإزارُ عن مآكم رِدفها ويُفعم طوقُ الحجل، والحجلُ واسع(5)

* * *

بيضاء يصرعها الشبابُ كأنما عبثت بقامتها سلافةُ بابل

ص 223

* * *

اسمها «راية» :

لراية وهي بهكنةٌ شموعُ رحيمُ الدلّ جمّاءُ العظامِ

منعمةٌ ، ممتعة، رداحٌ تجاذبها الروادفُ في القيامَ

كأن جبينها صبحٌ منيرٌ تمزّق عنه جلبابُ الظلام

وتبسم عن عِذاب ناصعات محلاّة المراكز بالوشام(6)

فمن صفاتها الخاصة: الشباب، والنعمة، و «خفة الدم»، ويكرر - في مكان آخر

ـ «صفرة الترائب» والصفرة من الزعفران، والتريب عظم الصدر «لم تحمل ولم تلد»[7] و «ما شانها طول ولا قصر»

ولا بد من الوصول إليها، مهما يكلف الأمر، ولا يصعب عليه أمر، ولعله لمح فيها مطمعاً.. ورأى الجامع بينهما الصبا، والشباب واللمة السوداء.. والخيلاء أو الجرأة.

أيام تعطيني الشباب ولمّتى   مسودّةٌ وأنا بذلك ناجح
إذ نحن نرفل في جلابيب الصِّبا   ولنا الرياض المخصبات مسارح

ص 62

وإذا كانت ممنعة فهي غانية بجمالها لا يحول الحراس دون أن تعلن عن نفسها وتكشف قناعها وتتصدى، وها هي ذي في متنزه الصُّفيحة:

لدى سَمراتٍ بالصفيحة ظبيةٌ   تصيدُ الأسودَ الغُلبَ من حيث لا تدري
محجبةٌ بالخيل والبيض والقنا   وكل أشمٍّ الأنف أروع كالصقر
إذا حاولت قتل امرىءٍ غير ضارع   بلا نبل بين النفوس بلا ختر
أماطت قناعاً لو أماطته قبلها   على البدر ما انفكّ الخسوفُ على البدر
وسلّت سيوفاً من جفون مريضةٍ   هي السحر بل أدهى التباساً من السحر
تصدت لقتلي والشباب يُميدها   فيقلقُ من هصر الروادف بالخصر
فطلّتْ سما جفني، وألوت بمهجتي   وأذكت لظى شوقي، وأوهت قوى سُّري

* * *

أناةٌ ميودُ القد هيفاء بضةٌ   نقيةُ مجرى الطوق طيبة النشر
أبى نهدُها أن يلمس الدرع بطنَها   وأردافها ما إن تدب على الخصر...

لقد عشق، وهام، وظل يتابع الموقف ويتتبع الأثر، وقد ثبت له أن في «الصفيحة» دارها ولها من حولها أتراب مثلها جمالاً، ولا يتوانين من العبث بالشباب والتعرض لهم. ولا يصعب عليه بعد ذاك ولوج البيت عليهم ومفاجأتهن.

وبيتِ خرائدٍ حُورٍ حسانٍ   نواعم من بنات الصِيد غيدِ
إذا أزمعن قتل عميدِ قوم   كشفن عن الترائب والنهود
يطُفن برايةِ شَغفاً وحباً   طوافَ الوفد بالبيت المجيد
دخلتُ فقمنَ تعظيماً لعزّي   كما قام الإماء إلى العميد

ص 83

وليس من المعقول أن تجهله أو تتجاهله ، ولكن شيئاً من هذا قد حصل ـ ذات مرة ـ وزادت على التجاهل الإساءة إليه والتمنع عليه، وكأنها أحست بخطأ فعملت على تفاديه فبثت ذلك إلى أترابها، فتولين لها شرح الحال والتعريف بالفتى ، فكانت قصة تذكر بعمر بن أبي ربيعة، دون أن تكون تقليداً للتقليد، وإنما هي أصالة وواقع وإبداع أدبي:

لرايةَ وجه يكسفُ الشمسَ والبدرا ... ولدنُ قوام يُخجلُ الصَّعدةَ السمرا
وثغر كممطور الأقاحيِّ واضحٌ ... وسلسالُ ريقٍ يفضح الشهدَ والخمرا
هرقت دمي يوم «الصفيحة» إذ بدتْ ... تخاطبني سرّاً وتلحظني شزرا
وأذكت لظى قلبي وأجرت مدامعي ... ولما أجدْ عنها سُلواً ولا صبرا
وبُحت بسري في الغرام وعادني ... هوىً عذرويٌّ فاضح يهتك السترا
فقلن لها أترابها مذ رأين ما ... دهاني منها كي يُحطن بها خبرا :
قتلتِ للكِ الويلاتُ نفساً زكيةً ... لقد جئت شيئاً يا مهاة الخبا نُكرا
فقالت ألا أنبأتنيه مَن الفتى ؟ ... وما اسمه ؟ فانصعن يخبرنها جهرا
ألا إنه مولى السلاطين كلها، ... وأشرفُها نفساً وأجزلها ذِكرا
وأصدقُها قولاً، وأبذلها يداً، ... وأرجحُها عقلاً، وأرفعها قدرا
وأشجعها قلباً، وأبذخها عُليً، ... وأكثرها مجداً، وأرحبها صدرا
فجاءت، وقالت: ما اسمه، قلن ذو الوفا ... سليمانُ يعني البدرَ والبحر والدهرا
سليل سليمان ابن نبهان فانثنت ... تنَهَّدُ من حزنٍ وتستعظم الأمرا
وقامت ودقّت صدرها بيمينها ... وأذرت دموعاً بلّت النحر والصدرا
وقالت ألا واحسرتا وافضيحتا ... لقد جئت شيئاً في قلبك الورا إمرا
وقالت كُفيتنَّ الأسى ما دواؤه ... وهل من دواء أو علاج به يبرا
فقلنَ لها ما إن لداءِ متيم ... سوى الوصل. قالت: سوف نسأله العُذرا
فقالت فدتك النفسُ يا تاج يعربٍ ... أقِلْني، ولا تحمل عليَّ بذا إصرا[8]

يقول الدارسون والنقاد حين يدرسون شعر عمر بن أبي ربيعة إنه من ثمرات مجتمع المدينة ومكة، مجتمع متحضر. فإذا كان ذاك ، فهذا من ذاك في الحدود التي جرت فيه قصة «سليمان ـ راية» في الأقل ، وفي بقعة معينة من عُمان لا يفترض بها أن تمثل عُمان كلها.

وقد حصل الوصل، وسارت خطواته إلى أبعدها من شؤون الجسد. ويتم اللقاء ليلاً، على تبادل من الرضى، وإجماع على المتعة وسعادة بالوئام. ويتغلغل كل أولئك في ذاته ويستولي على وجوده، ولا ولن ينساه، ويظل يكرر الحديث

عنه مجملاً مرة ومفصلاً مرة.

والماء صافٍ، والرياض مريعةٌ، والوصل وافٍ، والحبيب مسامحُ
إذ نحن نرفل في جلابيب الصبا ولنا الرياض المخصبات مسارح
جذلين ننتهب اللذاذة حيثما غفل الرقيبُ وغاب عنا الكاشح
ما إن يروعنا هزبرٌ زائرٌ يسطو ولا كلبٌ عقورٌ نائح

ص 62

لله أيامُنا والشمل مجتمعٌ وعيشنا من أذى التنغيص قد سلما
أيامَ لا كاشح نخشى ، ولا عذلٌ يغشى هناك ولم نحفل لمن غشما
أيامَ تفرشنى زنداً، وتلحفني ردفاً، وتمطرني من وصلها دِيما
وألثم الثغرَ منها وهي باسمة والدهر عن ثغرٍ مسرور قد ابتسما
تهوى هوايَ وأهوى كل ما هويت وحاكم الحبّ في أحشائنا حكما
نلهو ونسهو ونغفو لا يؤرقنا واشٍ ومهما رآنا صدّ أو كتما

ص259 - 260

... إذا تستبيك بكالمنوّر ناصع عذبٍ مذاقتُه ودلّ عاسلِ
لم أنسها إذ لا الوصال يشوبهُ هجرٌ وإذ لا الدهر نَزْرُ النائلِ
أيام ريقُ فم الخريدة قهوتي ومنازل الخود الشموع منازلي
والعيش أخضرُ والشباب مساعدٌ والماء عذبٌ سائغ للناهل
ومنايَ رايةُ لا تخل بواجبٍ مما أحبُّ ولا تميلُ لعاذل

ص 224

كأن على أنيابها خمر كرمةٍ يخالطها صافٍ من الماء قارسُ

ص 135

... كأن ريقتها، والفجر منصدعٌ ، ماء الغمام جرى رفقاً على بردِ
أو قرقفٌ من سلافِ الخمر قد مزجت بذائب الثلج في الكاسات والشهد

ص 75

كأنَّ أنيابها وهْناً حصى بَرَدٍ أو أقحوانٌ سقاه طلّه الحدر
يضوع من خدرها أما نفائجُها مسكٌ وعودٌ ولا مسكٌ ولا قَطر

ص 124

... وكائن ليلةٍ مُذ رحتُ فيها بوصل هضيمة الكشحين رُودِ

ص 84

ومرابع اللقاء متعددة تعدد «الرياض»، وإذا كانت الصفيحة أشهرها وأهمها،

فهناك «ربعٌ بالعقيق فكبكب» ، وهناك دارها «في صوى والأجرد»، ودارها «بلوى الأرائك من سخام» ، وديار وديار أخرى «بانفاءِ قوٍّ أو متون الأراقم»

فغولٍ فأيام فنغيٍّ فألعسٍ   فأدعاص ثافٍ فالأطيط فجاسم
معقَّلةٍ بالزُّرق فالحبل ذي الغضا   فنعفى أريكٍ فالرُّبى فالصرائم

«ومنها بأكناف الدخول» ومنها «ببطحاء السمائل منزل» ، ومنها...

ويندر أن تجد شاعر عربياً حدثنا عن الاتفاق على اللقاء والوصل كما حدثنا سليمان بن سليمان، بقدر ما حدثنا، ومع اللقاءات تعدد أماكن اللقاء. وقد يبدو غريباً أن الذي يفهم من شعر الشاعر أن هذه الأماكن ـ وسمّها المرابع أو المنازل ـ هي أماكن راية نفسها حتى قال مرة على وجه من الصراحة إن منازل راية منازلي ـ 264 وزاد في الصراحة في مكان آخر :

ولم أنسَ بل لم أنسَ ليلاً كلامها   لدى سمُرات الحيِّ والليل دامسُ :
تمتع أبيت اللعنَ وانعمْ بما ترى   فقد غفلا عنا: رقيبٌ وحارس
فهذا، وإن لم ترضَ ، آخر مجلسٍ   وما بعده ، يا خير ملكٍ، مجالسُ
وبتنا فلا تسألْ بما كان بيننا   فتغشاك إذ ذاك الهموم الهواجس
فلما تولى الليل قامت حزينةً   وأدمُعها فوق الفراش بواجس
وقمت أريق الدمع أرتاد منزلي   وقد كثرت شوقاً بصدري الوساوس
ص 135 ـ 6

ترى أين «سمرات الحي» هذه؟ الأولى أن تكون في الصفيحة، فقد وردت الصفيحة في القصيدة مرتين : مرة في المطلع ، ومرة بعد «وقمت» ـ بل قال مرة «لدى سمرات بالصفيحة» ص ـ 105.

ولهما «لدى سمرات الحي عن يمين الأُكم» لقاء بلغ فيه الانسجام أقصاه قطعت له العهد على البقاء معه وذل لها بالهوى على ما يدهشها:

... ليتني أفديكَ يا مولى الورى   من أذى الدهر وتغيير النعمْ
فتصاممت كأني لم أنل   سمعَ ما قلت وما بي من صمم
فأعدتيه وأقسمتِ على   صدق دعواك بذي العرش قسم
ثم فئنا لفراش ناعم   واعتناقٍ والتزام ونِعم
لا يروعنَّكِ ذُلي في الهوىَ   فلكم حط الهوى من ذي همم[11]

ترى لِمَ الفراق ؟ لِمَ وقد بلغت العلاقة هذه الدرجة من الغرام المتبادل ـ إذا لم نقل : الحب المتبادل حين اتسعت روابط الجسد لروابط في الروح . لم؟ وقد أخبرته

ـ صراحة ـ في آخر «مجلس» له معها في «قصرها» ونقل هو الخبر في شعره ولكنه لم ينقل السبب أو الأسباب وكأنه اقتنع بالحال وخضع للواقع.

وأوضح ما في الأسباب المباشرة هجرتها ـ أي هجرة آلها أي رحيلهم ـ فما زلنا في حياة لها من البداوة شأن ـ من المنطقة، من نزوى أو بُهلى وما بينهما وحولهما من رياض ومنازه. وربما كان المقام الجديد لها مجهولاً لديها ـ أو لديه ـ أو خارج حدود سلطانه المباشر في الأقل، وإلاّ لما صعب على مثليهما ـ وهما من هما في الغرام والحب والجرأة وتحدي الأعراف السائدة والتقاليد المعلنة ـ اللقاء مجدداً ؟ فقد جرى الذي جرى مما يمكن تصوره وما لا يمكن تصوره حتى قارب أو فاق ما عرف عن امرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة صراحة في الحال وطولاً في المدة . على الرغم مما قاله وكرر من أنها ممنعة يحميها مسلحون من قومها !! وما أشار إليه من نمامين وكاشحين يحضرون حيناً ويغيبون حيناً.

أترى في رحيل آل راية، بعيداً عن سلطان سليمان، ابتعاداً بابنتهم عن سلطان سليمان، تجنباً للفضائح أو ستراً لها أو بعداً عنها؟ ممكن. وإلاّ فلم جاء المكان المختار على ما يعيي سلطاناً اسمه سليمان لا تعوزه المغامرة ؟

ثم إن الرحيل، أو موعده في الأقل ـ بقي سراً مكتماً ـ يحتفظ به آل راية دون راية ليكونوا بمنجئ من علم سليمان. وهذا الذي حصل ، حتى إن لم يستطع أن يتمتع بنظرة ـ ولو نظرة ـ إليها حتى زمّوا رحال إبلهم ثم كان البعد الذي تفوق «مسافته» طاقة السلطان.

كم دون رايةَ من ذي جفجف جلدٍ ومن سخاويٍّ أقياف ومن عُقدِ
وبلدةٍ كممر الشمسِ طامسةٍ تيهاء تُذعر قلب الباسل النَّجِدِ
شطّت برايةَ عنّاطية قِدَدٌ زوراءُ توهي قوى المهرية الأُجُدِ
ص 274

* * *

... نعم اشْمعَلَّ الظاعنون لِطَّية زوراءَ ليس منالها بالهائن
ص 312

ولعله لم يقدر ـ أول الأمر ـ لخبر الرحيل حق قدره في نفسه، فما كانت الأولى في حياته، ولن تكون الأخيرة، ويكفي أنه السلطان سليمان، لعله حتى إذا بعدت واستحال عليه منالها أو العلم بأخبارها فهاج ذلك بلباله، وأذكى نار حب ينأى أحياناً عن معنى الجسد، ويدخل في معنى الجد. فيقلق، ويتعب، ويتشوق، ويتحرق، ويعاني، ويضعف ولا يكاد يجد شيئاً يسليه أو ينسيه، ولا تنفع معه

محاولات للتخفيف بالمناقشة أو العتاب أو اللوم أو العذل، فبدا وكأن لا شاغل له غير راية، كانت شاغله بحضورها، فزادت شغلاً إياه بغيابها (ولا تدري كيف يصرف ملكه، بعد ذلك، ومع ذلك). وبلغ في ذلك حد «السذاجة» في المنطق

... أقام هواكِ رايةُ في فؤادي	فها هو لا يؤول إلى ارتحالِ
أسائل عنك رايةُ كل ركبٍ	فهلاّ تسألين بسوء حالي
حلالي منكِ تعذيبي وهتكي	فقولي هل حلا لك ما حلا لي
حرامٌ يا مليحةُ قتلُ مثلي	فكيف تحللين سوى الحلال
أنا الصبُّ المتيّم والمعنّى	وإن كنتُ المعظمَ في الرجال

ص 203

وبرح به البعد، وآلمه الفراق، وبدا على غير ما هو عليه من جلد وعنفوان (وعبث) حتى حاول المقربون منه أن يخفّفوا من بلواه بشتى الأساليب ، وبلغوا بذلك التفنيد، فما زاده ذاك إلا ضعفاً، ورقة غير منتظرة.

... أمفندي في حب راية لا يضعْ	عندي ملامك واشكُرنْها تَرشدِ
والله لو حلّ الغرام بجلمدٍ	لتصدعت قلقاً قلوب الجلمدِ
رُفعتْ على العشاق رايتي التي	كُنفت بعذريِّ الهوى المتجرِّد
أعطيتُ مقودي الغرام ولم أكن	أعطي الغرام قبيل راية مقودي
قد يطفىءُ الماءُ السعير ومهجتي	أبداً بفيض مدامعي لم تبرُد
من لي براية أن ترق لعاشقٍ	حلف الصبابة ساهراً لم يرقُد
ولعل راية أن تذكّر ما مضى	فتجودَ لي بتعطفٍ وتوددِ
ما ضرَّ راية لو رنت لي لحظةً	مما أكابد من غرام مُكمدِ
يا رايَ هل لك في وصال متيم	دنفٍ إذا رقد الورى لم يرقد
فهواك سفّه فيه كلَّ مسفَّهٍ	رأياً وفنّد فيه كلَّ مفند
فتصفحي الأملاك هل من مالكٍ	غيري تفرّد بالعلى والسؤدد[14]

وليس سهلاً عليه أن «يتنازل» هذا التنازل لولا هول الواقع عليه وصدقه في هوانه إزاءه، وحين عاد حبه جدّاً - بعد هزل - وصار حبّاً بمعنى الكلمة يغلب فيه الروحي الجسدي، ولا سيما بعد أن بعدت فاستحالت مثلاً، ومضى به «الوجد» الجديد أن أنساه ما كان له معها وما كان لها معه فإذا هو «عذري الهوى»

رفعت على العشاقِ رايتيَ التي	كُنفت بعُذْريِّ الهوى المتجرد

أشك في أنه مرَّ في بؤس مناظر من حياته العاطفية كلها، لقد عاد «الجبار»

مسكيناً فاقد التوازن.

... جمح الزمان بها وبي وتواترتْ نُوَبٌ أسنَّتُها أَصَبْنَ مقاتلي
فلعينِ رايةَ في الظلام تعسُّفي وتطوُّحي بهواجلٍ فهواجلِ
ولعين راية أسأل الدمن التي درست وأبكى كل نؤي ماثلِ
ولعين رايةَ خضت آذيَّ الفلا بمكلّفاتٍ كالقسي زواملِ
من كل درفةٍ أمونٍ حرّةٍ تطِسُ الأكام، وكل فحلٍ راقل
ولعين راية لا لعين خريدة كرّيٍ إذا فرَّت كماة قبائل
بل للمحامد والمراتب والعُلى ولذلّ كل عزيزٍ قوم باسل
قولا : لراية إذ غشيت ديارها قول امرىء نَجْدٍ نجيب فاضل
إنّي إذا التقت الجحافل لم أزل أسطو على روح الكميّ الصائل

225 - 224

والأمر جد في دخوله عالم المثل العليا، وعالم الروح ، والتسامي.

ويبلغ به اليأس أن يقنع منها بالطيف يريحه قليلاً ويسأله عن راية:

تأوبَّ طيفُ رايةَ من بعيدٍ لنا سَحَراً ونحن ببرقعيدِ
سرى والليلُ قد ألقى جِداناً وبات يطوف بالرَّكب الهُجود
ألمَّ فلمَّ صدعاً في فؤادي وأطفأ لوعتي بعد الرقود
وأنّى لي اهتديت دجى ودوني نعافُ مخارمٍ وقفاف بيدِ
وكيف رأيت رايةَ يا خيالاً أراني وصلها بعد الصدود
أقامت بالصفيحة أم تولت لنجدٍ أم رماح أم زرود[15]

يتمناها باقية حيث كانت في «الصفيحة»، ويدل على أنه يجهل وجهة رحيلها، وإذا قرّبها وقرّبها كانت خارج حدود سلطانه ، وحدود عُمان كلها.

ويظل يذكر ويتذكر، ويأمل ويتشبث، ويمضي عام، ويشتد الهم الذي يمكن أن يخفف من وطأته مجيىء راية طيفاً:

زارتك رايةُ بعد حول كاملٍ فنفت همومكَ بالسرور الشامل
جاءتك بين مجاسدٍ وقلائدٍ وأساور ودمالج وخلاخل
أحْيتْكَ إذ حيَّتكَ بل أغنتك عن شجّ التنائف بالأمون البازل

ص 222

هذه هي قصة سليمان مع راية، أو قصة راية مع سليمان أو هذا ما بلغنا من حالهما ولم يرو لنا الحال غير سليمان نفسه، وقد رواها شعراً، وطبيعي أنه لم يروها

قصة متسلسلة كما عرضناها مستنبطة استنباطاً من مطاوي قصائده ومؤلفة تأليفاً لأن سليمان لم ينظم الشعر لدى أول لقائه إياها، ولم ينظمه وهما في أوج الوصال ، ولعله لم ينظمه للأيام الأولى للفراق، وإنما نظم قصائده ـ التي تضمنها ديوانه ـ كلها بعد أن صار الحدث فعلاً ماضياً، وإنه ليوزع مواد القصة هنا وهناك من هذه القصيدة أو تلك من القصائد الاثنتين والعشرين مطيلاً مرة باللقاء ومرة بالوصف الجسمي ومرة بألم البعاد.

أما مستهل هذه القصائد فالغالب عليها: الوقفة على الطلل ، والغلبة كبيرة. والطلل هذا أمر واقع في حياة الشاعر كما كان واقعاً في حياة الجاهليين. ولقد كان لراية ـ كما رأينا ـ مساكن متعددة من قصور وأخبية تقيم مرة هنا، ومرة هناك، وهو يتبعها حيث تكون من منتزه ومقام. وإذا كانت «الصفيحة» أبرز ـ وربما أول ـ هذه الأماكن فغيرها غير قليل.

لقد كانت، ورحلت ، وخلفت آثارها، كما كانت ترحل في الجاهلية ، كما رحلت صاحبة امرىء القيس . فأمر سليمان بن سليمان ـ إذاً ـ في وقفته على الآثار يسائلها وهو يعلم أنها لا تجيب ، ويبكي ويستبكي، ويتذكرها ويتذكر أيامها، ويسرح به الخيال فيستحضر الواقع وينسيه ـ للحظة ـ ما هو إزاءه من نؤي ومن أوابد الحيوان وما تركته العواصف والأمطار وكأنه لم يبدأ بها... حتى إذا ارتوى حيث مطيته ـ من ناقة أو فرس ـ وهو يصفها معجباً بها ويصف الفيافي التي تقطعها. والناقة واقع والفيافي واقع شأن واقعية الأطلال والوقوف عليه، لأن الشاعر يتحدث عما يرى وعما وقع له فعلاً فما هو بذلك الحضري في بغداد أو دمشق أو القاهرة أو الحلة الذي يفتعل ويقلد ويعيد ويبدي مما كان لغيره، وما هو منه بشيء. فلا طلل ولا ظعن ولا بيداء ولا ناقة أو جمل، ولا «حبيبة» كذلك! وهو لا يقف على أماكن حقيقية لديه من بلده وإنما يقف على أماكن من جزيرة العرب لم يرها وإنما ورثها شعراً عن محبين وقفوا عندها حقيقة.

إن الأماكن التي يقف ويستوقف عندها سليمان حقيقية من بلده وما وقعت له في ربعها الأوطار، والصفيحة مكان بعينه من عُمان بل متنزه معروف شرقي بهلي، كان يرتاده، وكان مقاماً ـ ذات يوم ـ لراية ، ثم ظعن منها آلها فما كان لها إلاّ أن تظعن حتى إذا مر الشاعر ـ وطبيعي لمثله أن يمر ـ هاج حزنه وآلمه ما آل إليه من خراب ، فبكى وتذكر وتخيل الهودج وظلت خواطره بل عواطفه تتضارب وتروح وتغدو في ثنايا القصيدة كما تمليها الحال وفي ذلك أيام اللقاء، والسعادة بها ، والتجاوب المتبادل بين محبين متعاشقين، ثم انتهى إلى الفخر ـ شأنه ـ ويطيل في

الفخر بملكه وشجاعته ونسبه... وقد يحار المرء في تعليل هذا الفخر الطويل بعد ذلك الحب والحنين والبكاء. هل الفخر هو الغرض الأصلي من النظم وقد افتتحه بالوقوف على الأطلال متابعة لتكوين القصيدة العربية «المثالية» ؟ ممكن ، وغير ممكن. ممكن أنه ابن التقليد العربي بل هو في صميم التقليد الحي . وغير ممكن لأن حبه لا يقل عن ملكه ، وربما استصغر ملكه بإزاء حبه، وخضع بجبروته لضعف «حبيبته».

ولباحث أن يرى فيه معادلاً لحبه ، يرى به مخلصاً، يطمئن به نفسه ويقوي أركانه بعد أن يكون قد سفح من الدموع ما سفح واستنفد ما يختلج في ذاته إزاء صاحبته، حتى إذا فرغ من ذاك خلا إلى نفسه ـ وهذا ممكن أيضاً ـ والتقى، من ثمَّ غير الممكن بالممكن شأن أي عمل أصيل.

ونزيد أنه ربما مر بالطلل وهو في طريقه إلى معركة يثق بنفسه من الانتصار فيها، وأن من إعجاب راية به ما عرفته من مجالي فخره نسباً وكرماً وشجاعة، حتى إنه يؤكد لها في فخره ـ أحياناً ـ وهو يتذكرها ويخاطبها ـ أنه ما زال ذلك الماجد الجواد البطل.

وملاحظة أخرى أنَّه لا يصف ـ في الغالب ـ ناقته وفرسه أو البيداء وما يذكره منها بالثور الوحشي ... في طريقه إلى الطلل ، وإنما يصفها عند مفارقته الطلل ليخلص من الوصف إلى الفخر. وقد يؤكد هذا أن الأطلال ـ وهي كثيرة متعددة منتشرة هنا وهناك ـ هي التي تلتقيه فيقف عندها وهو سائر إلى غايات أخرى من حرب وغيرها، كما يمكن أن يؤكد أن تلك الأطلال قريبة من منطلقه لا تفصلها عنه المهامه والقفار ولما تبذل الناقة أو السفر ما يرفع من شأنهما.

ولا بد من أن يكون للصفيحة حظ واف من الذكر فهي المجلس الأول للقاء، والمجلس الأخير للوداع

أهاج لك اكتئابا وادّكارا — رسومُ منازل أضحت قفارا
لرايةَ بالصُّفيحة غيّرتْها — يد البين المشتِّ غداة جارا[16]

ويأتي مع الصفيحة العقيق وكبكب:

لراية ربعٌ بالعقيق فكبكبِ — تلوح كعنوان الكتاب المعرَّب
عفاه من الوسمي كل مجلجلٍ — منيف الغمامِ برقُه غير خلَّب

ص 22 ـ 25

وصوى والأجرد

يا دارَ رايةَ في صوى والأجردِ | هل في عراضك، بعد راية، من دَدِ
شحطت براية عن رسومك طِيّةٌ | زوراءُ تجنح للمرام الأبعد
أنا زائر فمسلّمٌ فتكلمي | يا دار رايةَ للمتيَّم تحمدي

ص 85 - 86

ولدى الأرائك من سحام:

قفا بلوى الأرائك من سحام | نحيي دار رايةَ بالسلام
وعوجا نسفح العبرات فيهاَ | وإن لم نشفِ تبريح الغرام
وهل يبكي المعالم غيرُ صبٍّ | هيوم بالتذكر مستهام
وقفت بدار رايةَ ذات يوم | أخاطبها فتبخل بالكلام
وكيف يردُّ رجع القول ربعٌ | لراية دارسٌ نائي المقام
تبدَّل بالظباء من الغواني | ومن حمر القلائص بالنَّعام
وكلّ مسفّع الخدين دفءٌ | أحمّ العين مطّرد الجوامي
لراية وهي بهكنة شموعٌ | رخيمُ الدَّلّ جماءُ العظام
تواصلني فيعجبها وصالي | ولم تجنح هناك إلى ملامِ
إلى أن جدّ جدُّ البين فينا | فبدد شملنا بعد التئامِ
وزمّوا للفراق مزمّلاتٍ | ذعاليبا تقاذفُ بالمَوامي
هجائي من سراةِ بني غُرير | تمر مؤخراً مرَّ الجهام[17]

وقوله وغيرها كثير:

لراية أطلالٌ كرقم الأعاجمِ | بأنقاءِ قَوٍّ أو متون الأراقم
فغُولٍ فأيامٍ فنغيٍّ فألعسٍ | فأدعاص ثافٍ فالأطيط فجاسم
فمعقلة بالزرقّ فالحبل ذي الغضا | فنعفى أريكٍ فالرُّبى فالصرائم
ومنها بأكتاف الدَّخول معالمٌ | كأشلاء شم مرجَع في معاصم
ومنها ببطحاء السمائل منزلٌ | يحدثنا عَن عهده المتقادم
توهمته إذ ذاك، ثم عرفتُهُ | بمستوقد بالٍ وسفع جوائمِ
وأورقَ ذي حَوْل ونؤي مثلَّم | وأسعدَ فردٍ شجَّ بالفَهر جاثمَ
وآريٍّ أفراسٍ ومبركِ هجمةٍ | وملعب أبكار حسان نواعم
أماليدَ غيدٍ بهكنات برارةٍ | بعيدات مهوى كلِّ قرط، كرائم
فأصبح قد أبلى الجديدُ جديده | وأقفر من أربابه، والقماقِم
عفته الرياح الهوج والبين والبِلَى | وكل أجشٍ يهرق الماء ساجم
وقفت به أبكي أسىً وصبابةً | وقوف كئيب شاعف القلب هائمِ

فعنفني إذ ذاك خِلّي وصاحبي | على هرْق دمعي بين تلك المعالم
وقال اتقِ الرحمن واستشعر التقى | وصبراً، فإن الصبر أسنى المقاسم
أتبكي على عهد تقادم عهدُه | وأنت ربط الجأش ماضي العزائم
فقلت ونار الشوق تأجّ في الحشا | وعيناي كالسُّحب الهوامي السواجم
ألائم لو كابدتَ بعض صبابتي | إذاً عُجتَ عن لومي ولمت لوائمي
أعاذلُ دعني والكآبة والأسى | فما حازمٌ عند الغرام بحازم
أعاذلُ أبكاني لراية منزل | تأبّدَ عصراً باللوى فالصرائم
عهدتُ به عيشاً رغيداً ولذةً | بمهضومة الكشحين ريّا المآكم

* * *

وليلة زمّوا للفراق أيانقاً | يُطيّرنَ بالأخفاف مروَ المخارم
بكيت بكا الخنساء لجُد صخرها | بمخلوجةٍ في المأقطِ المتلاحم
وديمومة مقّاء دوٌّ قطعتها | وهلباجةٍ فوق الحشية جاثم
بحرف دفاقٍ عيسجور عرندسٍ | عثوثجة من سر عيسى أياهم(18)

* * *

وقد يقف على طلل لا يسمي مكانه، ولكنه يذكر ـ ويتذكر ـ عنده راية، فاسم راية عزيز عليه، حبيب إليه، يستعذبه لسانه ويستريح إليه خاطره وينبض به قلبه، وربما كرره ـ كما رأينا ـ مراراً في القصيدة الواحدة وفي الأبيات المتقاربة من القصيدة نفسها

ألا فاحبساني اليومَ قودَ النجائب | فنُهرق دمعاً بين هاتي الملاعب
إذا نحنُ شارفنا لراية منزلاً | فمن حقه غشيانُه بالركائب

ص 26 ـ 29

وبكى وتذكر ووصف المفازة والناقة وفخر ليبين ـ بعد ذلك ـ الهدف المباشر من رحلته

يادار راية أبلى ثوبَ جدّته | تقادمُ العهد والأرواح والمطرُ

ص 123

قلنا ـ وما زلنا نقول ـ إن سليمان بن سليمان حين يقف على الأطلال أصيل في وقفته ، لأنه يعاني أمراً واقعاً ، والأطلال حال واقعة فعلاً. وهو بهذا يختلف عن ألوف الشعراء الحضريين في عصره ومنذ أيام بغداد، لأنهم يقلدون ويفتعلون ، وهو لا يقلد ولا يفتعل. والمقصود «بلا تقلد» هذه، لا يكون كمن لا يقف فعلاً مقلداً

من وقف فعلاً ، وإلاّ فلا بد من النظر إلى أصالة سليمان من خلال تراث مكتمل تلقاه في الشعر الجاهلي عموماً وفي المعلقات ودواوين أصحاب المعلقات وفيهم امرؤ القيس وطرفة وزهير ولبيد وعنترة...

الشعر يخفف من اللوعة، وقد يصرّف قدراً كبيراً منها على مر الزمن، وها هو ذا الزمن يمر، وقد ذكر الشاعر منه عاماً، ولنا أن نزيد على العام، وفي الشعر ما يشي ـ على وجه من وجوه ـ بالسلو، فلم تعد فيه تلك الحرارة ، متصلة التأجج، فهي متقطعة بل هاجعة وادعة لا تستيقظ إلاّ لدى منبه خارجي فيعترف الشاعر نفسه بما كان من هجوع الوجد ـ وقد عوّدنا الصراحة:

أشاقك برقٌ بالصفيحة لامعٌ	أرقت له والخالي البال هاجعُ
فنوَّحَ مستناً، وغار هنيهةً	وأومض في جنح الدّجى وهو ساطع
فأيقظ وجداً هاجعاً بين أضلعي	وهيّج شوقاً لم يزل وهو وادع

ص 159

تذكرها ـ عندئذ ، وذكّره بها كذلك طير ينوح ، ولقارىء أن يلاحظ «هدوءاً» في المنطق وقلة في انسياب المعاني تتبعها قلة في انسياب التراكيب :

... أنا العاشق الصبُّ المتيّمُ في الهوى	وهل عاشقٌ إلاّ لعشقي يتبع
سرى طيفك الطرّاق يعتاد مضجعي	فإني بطيف منك راية قانع
ألا إنني للحب عانٍ وضارع	وإني لداعيه مجيب وطائع
ومن ملك البيض الحسانُ زمامه	سينقاد، أو يقتدنه وهو خاضع

ص 158 - 160

وإذا كانت هذه القصيدة لا تمنح الدارس الشك الذي رآه فيها كاملاً، فإن قصيدة أخرى يمكن أن تمنح ما هو أكثر من الشك، ووقف فيها الشاعر على ربع لراية، والمفروض ، بل المطلوب الذي عودنا إياه أن يذكره الربع بها فيصفها، وبأيام اللقاء فيعرضها، وبألم الظعن والفراق فيذيع هذا الألم مصحوباً بالأشواق والانتظار والرضا بالقليل من طيف هذا القليل. ولكن أي شيء من ذاك لم يحصل على طول القصيدة المحكمة الصنع البالغة خمسة وخمسين بيتاً.

ـ ماذا قال إذاً ؟

ـ وصف الربع في ستة أبيات واطمأن ـ ولم يكن من قبل كذلك ـ إلى أن الربع لا يردُّ جواباً ولا خير فيه للحب. وما أسرع ما لوى عنان فرسه نحو ما لا علاقة له البتة براية وكأن همه الأول معارضة معلقة لبيد

وقفتُ على ربع لراية ناقتي	أريقُ سما جفني به وأسائله

وكيف يرد الرجعَ ربعٌ مخلّدٌ	بحيث الغضا أقوت سنيناً منازله
عفا غير سفع كالحمائم جثَّم	وأورق بادٍ في الخصاصات جائله
ونؤيٍ كجذم الحوض أثلم خاشعٍ	وأشعثَ فردٍ شجَّ بالفهر عاطله
به كلُّ شحّاجٍ إلىَ كل سمحجٍ	تعـالجه أنى انبرى وتماطلـه
وسيدٍ وسمعٍ والخفار وفُرعلٍ	وأرقط إن صال استكانت فراعله
فسلِّ الهوى واستحمل الهمَّ بازلاً	رعته الفيافي فاسلهمتْ كواهله

ص 179 ـ 180

وخشية الاتهام بتحميل الأبيات ما قد يؤدي إلى الإلحاح فلا نلاحظ أن الشاعر المحب لم ير في «الربع» إلاّ الكريه، كأن لم تكن له وراية أوطار وأوطار، وحين لم ير إلاّ الكريه لم تفرض ذكرى راية عليه وجودها، فأسرع مبتعداً وكأنّه ينظر إلى معلّقة لبيد مشغولاً الشغل كله بوصف الفرس معجباً به مشبهاً إياه بثور وحشي خارق القوة والتحمل غالب لكلاب صياد ماهرة انبرت له. حتى إذا استقصى الشاعر المعركة عاد يصف الظليم ليقول إن فرسه أسرع منه وأقطع لأميال المفاوز حتى إذا انتهى من التفصيلات فاجأنا بمغامرة طرق فيها «بيضاء» ليلاً فخافت الفضيحة، ولكنه قبلها ، وكانت تحسبه نسيها بعد لقاء له بها قبل خمس ليال من هذه المغامرة . وليس في هذه «المغامرة» ما يقنع أنها كانت مع «راية» وإذا افترضنا أنها مع راية ـ افتراضاً ـ فلم يكن له معها غير العبث بعيداً عن أي شوق وحرقة وحب حقيقي.

وقد يفيد المحلل من كلمة «سنين» الواردة في البيت الثاني ليستدل على شيء من بعد العهد براية. ويرى أن الذي «بدر» من سليمان في الوجد والإخلاص ليس قليلاً ، وهو من هو في السلطان والمغامرة والمجتمع الخاص . ولا بد من أن يفتر يوماً ـ بعض الفتور ـ وأن يتسع عالمه لتجربة جديدة قد تبدأ هزلاً وتعزية، ثم لا تلبث أن تدفع ما قبلها ـ قليلاً قليلاً ـ لتتمكن . أجل، ونعود إلى سليمان مجدداً .

2 ـ موذية

سليمان بن سليمان فتىً، شاب، ابن سلطان، وهو هو نفسه سلطان أو سيكون سلطان وراثة أو نهضة جديدة... ولا يمنعه مانع عن المتع التي يستطيع أن يجدها في مجتمعه أو أن يفرضها عليه ، وله ـ من ثم ـ في المتنزهات غدو ورواح، ولا تصده أبواب البيوت المقفلة.

ويلتقي هنا وهناك حسان قومه من الفتيات الآمنات مرة، والطالبات للأنس مرة، وتبرز بين «الأتراب» واحدة تستهويه ثم لا تلبث أن تخلب لبه وتستحيل هواه ـ والحكاية تأتي، حكايته مع «موذية» أو حكاية موذية معه ـ هذه المرة.

إنه «بالسفح من منح»[19] ومنح «أفخم قرى عُمان ، وهي شرقي نزوى»[20] (العاصمة). وإذا سرب من الغيد المترفات، يقترب منهن، فيتضح وصفهن لديه، وتتضح بينهن موذية، ويزداد الوضوح على الأيام:

خرَّدٌ غُرٌّ حسانٌ بُهَّجٌ	وضَحٌ يسحبن أذيال السّرقْ
لؤلؤيات الثنايا شُمَّسٌ	ناعماتٌ عنبرياتُ العَرَقْ
رخّصُ الأطراف عذبات اللمى	رجّح الأرداف غضاتٌ فُنُقْ
بهكنات فاتنات نُهَّدٌ	بدوياتٌ مغاويرٌ عُشُقْ
يتعهدن خِبا «موذية»	لسلام إذ كسا الليل الأفقْ
وهي عجزاءُ هضيم كشحُها	رخصة المعصم غيداءُ العنقْ
أنا حتى الموتِ من سكر الهوى	أيها العاذل فيها لم أفقْ
كيف يصحو من طُلى الشوق فتىً	قلبه في شرك الحب عَلَقْ
تيمتْ قلبي بعيني فرقدٍ	مفردٍ فاجأه الرعب لهِقْ
ونجد عندميّ واضح	بمياه الحسن ريان شرِقْ
وبكالديجور فعم فاحم	بأريج العنبر الورد عبِقْ
ولها سالفتا مُغزلةٌ	آنست نبأة قنّاص حنِقْ
وقوامٌ ناعمٌ أعطافه	حسن الخطرة كالخوط الورِقْ
غرِق الخلخال في مدمجها	وعلى مهضومها الحلي قلِقْ
ولقد تبسمُ عن ذي أشرٍ	مشرقٍ مثل الجمان المتّسقْ[21]

ولا يخرج الشاعر بهذه الأوصاف عن مألوف الغزل في الشعر العربي ـ أصيله وتقليديه ـ وأقل الأسباب في ذلك ما يكاد يكون واحداً في الذوق العربي لدى نظرته إلى المرأة الجميلة (منذ الجاهلية)، ما في ذلك أن تكون «عجزاء هضيم كشحها». والبهكنة من موروثات طرفة بن العبد في معلقته.

ويبقى الفرق بين أصيل أي شاعر يصف امرأة بعينها خلبته بتكوينها المثالي عند قومه، ويدل بما ينفث فيها من روحه وعاطفته وحماسته على واقعية الحال. وهذا ما حدث في هذه الأبيات المستلة من قصيدة طويلة للشاعر، لا لجمالها الفني الموعود، وإنما لدلالتها التأريخية على علاقة سليمان بموذية : رأى فتيات حساناً يدخلن إلى بيت موذية لدى نزول الظلام ، ويفهم ـ بعد ذلك ـ ضمناً أنه احتال على الدخول،

أو فاجأهن بالدخول دون رادع ، فكان ما كان من وقوع موذية من قلبه.

وهذا موضع الشاهد بالأبيات، وإلاّ فما هي ـ فيما عدا ذاك ـ بذات أهمية في نسجها الذي تغلب عليه الخلخلة ، ومفرداتها التي تنبو في مكانها أحياناً فتبدو عوهجيات ثقيلة ، أو التي تدل على تكلف في الصيغة ومن ذلك: بهّج ، ووضّح وشمّس ،حتى قال المحقق ـ وهو يشرح رخّص ـ «ورخّص على القياس جمع راخص ـ والمطلوب جمع رخّص ـ والشاعر جريء على الاشتقاق جرياً على ما قيس على كلام العرب فهو عربي» . وقد يكون هذا سبباً يذكر ، وإلاّ فقد يعود إلى أن الشاعر لا يأبه كثيراً بالقواعد المشدّدة للصرف، أو أنه في طور قريب من أيام البدء بالنظم ، ويحمل هذا القرب على التصرف بما يملك ويقدر عليه ولا يحس الغضاضة أو النشوز السمعي فيه، ومن هنا جاءت هذه القوافي: السّرق، فُتُقْ، عَلَقْ، لهِقْ...

وقد يعود ما يراه الناقد في القصيدة من تدنٍّ عن كثير غيرها قبلها، ومن عاطفة ليست على العمق الذي رآه في قصائد قبلها، يعود إلى بدء علاقة ما زالت ميلاً فقط.

والمهم في الأبيات أن امرأة بعينها ـ اسمها موذية ـ صعقت الفتى الجريء سليمان بتكوينها الخِلقي الذي يبلغ المثل الأعلى في الذوق العربي الموروث.

وتظل هذه الصورة عالقة بنفسه يكررها مع العجزاء والبهكنة ويزيد على البهكنة: البرهرهة الآتية من أيام امرىء القيس. وقد يزداد تقدماً بتقدم العلاقة:

برهرهةٌ رُعبوبةٌ بدويةٌ	منعَّمةٌ خودٌ بها يُضرب المَثَلْ
تنوء بأخراها فلأياً قيامها	وتقعدها الأرداف والتيه والكسل
كأنَّ على أنيابها خمر كرمة	يُعَلُّ بماءِ الورد والمسك والعسل

ص 233

* * *

أموذي ما للحسن فيك مذاهبٌ	فيمضي ولا يوم به عنك مرتحل
قتلتِ مليك الناس والهيطل الذي	أبادَ العدى، والسيد الماجد البطل

* * *

ولا بّد من يوم أغرّ محجلٍ	من الدهر قد حلّت به شمسُه الحمل
أجرُّ به جيشاً لُهاماً عرمرماً	إذا ناشَ طوداً ماد من خوفه الجبل[22]

وفرق واضح في متانة هذه الأبيات سبكاً وقافية وسيطرة.

ولدى البحث خلالها عن زمنه ومكانه، فقد نرى في قوله «مليك الناس» أنه في أيام ملكه ـ إذا لم تكن «المليك» بالمعنى الوراثي ـ الأولى وطموحه الأول إلى اتساع الملك وقيادة الجيوش في الحروب.

وهو يخبرنا أنه كان في شبابه الغض ، وهي كذلك:

كلفتُ بها غنّاءَ غضّا شبابُها وظِلُّ شبابي سابغٌ لم يُرنّقِ[23]

ويتبادلان النظرات ، والكلمات، فيزداد الهيام، ويقع فيما لم يكن يتصوره، ويتعلم ما لم يكن يعلم: ولعلها تمنعت عليه حيناً فزاد عشقاً وأرقاً فلامه من لامه فما استجاب، وما قرّ له قرار حتى استجابت هي هي ، موذية، ويلتقيان ليلاً:

تجلو ظلام الدُجى أنوارِ غرَّتِها كأن غرَّتها في الليل قنديلِ
قالت ـ وقد قلتُ هل وصلٌ ألذُّ به؟ ـ : دعني سعدت فخمر الوصل مملولُ

ص 221

وتمضي الأمور على مجرى ما يكون بين امرأة ورجل لا يعرفان من «العلاقة» أكثر من الجسد

بل ، ربَّ يوم ظللتُ فيه منعّماً ببيضاءَ، ريّا الساق ريا المنطَّقِ
إذا أودعت أردافها ثني منطق تفتق تمزيق الجهام المعبَّق
كأن على أنيابها ماءَ مزنةٍ يُعلُّ بخرطوم العقار المعتق[24]

ويتصل أول الليل بآخره وتتكرر صورة خمر الأنياب:

كأن على أنيابها خمرَ كرمةٍ تُشجُّ بصافٍ ذي جلاميد سلسال
بُعيد الكرى والفجرُ لليل هازمٌ وقد هبَّ للذكرى أخو الرهبة التالي

ص 197

ويتم اللقاء ـ إلى أقصاه ـ في قصر منيف، قد يكون قصره (وقد يكون قصرها)، فيزيد الوصال الليليّ على متعه المعهودة أو المتصوَّرة متعة غير منتظرة هي أن تدل موذية على صوت رخيم وغِناء أخّاذ فتصدح وقد أخذت منهما الخمر ما أخذت:

ربَّ يومٍ مدجنٍ نازعْتها طيّبَ الراح بقصرٍ قد سَمَقْ
كلما علّلتُها من صفوة أشرقت وجهاً وخلقاً وخُلُق
برخيم الصوت لو يسمعه صائم الدهر تصابى وصعِق[25]

* * *

ما كنتُ أعلمُ ما الصبا	بةُ والهوى حتى بُليتُ
فجنيتُ آثار الهمو	م من الهوى فيما جبيت

ص 40

على كثرة ما مر به من مغامرات ، ومن التقى من نساء.

ولا بد من أنها كانت تتمنع عليه، وتستعصي فيزداد ولهاً وهياماً. فينصحه الناصحون بالكف عنها.

واللقاء كائناً ما كانت المتعة فيه وما طالت... إلى افتراق.

لماذا؟ ألغضب لها عليه؟

إن كنتِ أزمعتِ صرمي في الهوى غضباً	فما لقلبيَ عنكِ الدهرَ تحويلُ

ص 220

أم لقرار اتخذه آلها، فعزموا على الظعن ليلاً، وربما كان قرارهم سرّاً بينهم، وربما كان الدافع عليه دفع ما آلت إليه علاقة ابنتهم بهذا الفتى السلطان الذي لا قوة لهم على رده:

أراحَ أهيلُ موذيةَ النياقا	كأن فريقهم عزموا الفراقا
فبتُّ أسامر النَّسرينِ همّاً	ودمع العين يندفق اندفاقا
وباتوا يحدجون محبساتٍ	ذعاليباً مواجيفاً دِفاقا
على رأي امرىء قد ساء ظناً	وأكمى في الضمير لنا شقاقا[26]

وقد وقع الظعن، ووقع الحزن:

يومَ كاد البين أن يقتلني	حين لما يتَّرِكْ فيَّ رمق
أظهرُ الصبر فلا أسطيعُه	وشؤون الدمع سكبا تستبق
أدرتْ موذيةٌ ما عنَّ لي	حين أضمرتُ من البين شفق
لو درى الحادي بها أني بها	مغرمٌ جعجعَ حبساً ورفق[27]

ونعود مع هذه الأبيات إلى أبيات مرت من القصيدة نفسها حين رأينا ركة في النسج تشي ـ فيما يمكن أن يقال ـ بعهد قريب من أيام البدء والتدريب الأول. ومن ذلك هذه الغرابة في استعمال «لمّا»، هذا التكلف في «سكبا تستبق»، و «أضمرت من البين شفق» بمعنى «حين أضمرت من البين الإشفاق أي الخوف»...

ونستشهد بها ـ ولبيان الحال وليس لإعجاب بجمال.

إن مع الفراق ألماً شديداً قد يطول، ويريد ما لم يكن يتصوره ويدخل إلى عقله ما يخلخله، ويمضي يبث حزنه ويسكب دموعه ويرى موذية في كل جميل ويكني

به عنها... ولا يقويه على البقاء إلا التعلل باللقاء والوصل:

... لولاك موذية النفو سِ لما غضبتُ وما صبوتُ
فإذا شدَتْ فوق الغصو نِ حمائمٌ غُردٌ شدوتُ
وإذا بكا جونُ الغما م بمعهدٍ بالٍ بكيتُ
ولقد أغرّلُ بالغزا لَة وهي تعلم ما عنيتُ
وأخاطب الغصنَ الرطيـ ـبَ وما لخطرته هفوتُ
وأقول بالدِّعص الرّكيـ ـم كنايةً عما ابتغيتُ
وأتوق للقمر المنيـ ـرِ وما به فيك ارتضيتُ
وأقول يا شمسَ السعو دِ وما لغايتك انتهيتُ
ما كنتُ أعلمُ ما الصبا بةُ والهوى حتى بُليتُ
فجنيتُ أثمار الهمو مِ من الهوى فيما جنيتُ

* * *

لا تبخلي ذات الدلا لِ عليَّ منك بما رجوتُ
لو أشربُ السلوان عن ذكراك موذيَ ما سلوتُ
لولا التعللْ باللقا والوصل منك أسىً قضيتُ[28]

إنه شاعر يترك نفسه على سجيتها فيسهل نظمه أحياناً إلى درجة كبيرة، وهذا قليل جداً في عصره، وقد يرد ذلك أنه ليس بالشاعر الممتهن، غير ما يرد منه إلى أصالته، فهو مشغول بهمه أكثر من شغله بالرصف. وتبقى لحاله صدقها ولتعبيرات له طرافتها.

ويظل يتذكرها، ويذكره بها كل شيء، وها هو ذا برق يؤرقه:

ويا هِلْ شِمتَ برقاً مرّ وهناً يؤمُّ جبالَ رامة والبُراقا
أرقت له وهوَّم عنه صحبي فهيجَ موهناً وجدي وشاقا
أرقتُ أشيمه وأميل شوقاً إليه وبات يأتلقُ ائتلاقا
ذكرتُ به لموذيةَ ابتساما إذا ما الوصلُ حقَّ لنا عناقا

ص 165

وإذا أغفى، طرقه آخر الليل خيالٌ من الحبيب، ص - 166.
لقد قتلته وهو الفتى الذي لا يهاب الموت لأنه المليك السيد البطل، ص - 234.
ولا شيء يزهده فيها، ويسليه عنها، ولا ينفع معه عذل عاذل وإغراء غادة:

أموذيَ إن الحبَّ أصبح عامدي وإني لعاصٍ فيكِ موذي عُذّالي

ومثلك غرّاء الترائب غادةٌ منعمةٌ عطبولةٌ غير معظال
تمنى اختياراً أن أبيت ضجيعَها وتُمنى بحتفٍ بعد ذلك مغتال[29]

وهذا مفهوم، ولكنه يزيد فيقول:

وخدرِ فتاةٍ لا يُرامُ ولجتُه على طفلةٍ غراءَ إبنةُ أقيال
تولجتُه والليل مُلقٍ جِرانَه وقد أطَّ نوماً سامرُ الحيُ والصّال
فقالت: أبيتَ اللعن إنك قاتلي فرفقاً فأعمامي شهودٌ وأخوالي
وقلت اطمئني إن سيفي لصارمٌ خشيبٌ وإني ذو مقال وأفعالِ[30]

ومفهوم أنه يعارض امرأ القيس ، ولكنه ليس في الحال التي كان عليها امرؤ القيس ، إنه حزين أشد الحزن لفراق حبيب لا يعدلها حبيب ولا يعزى عنها معز. فلم هذه المغامرة؟ أيريد أن يقول إن المغامرة ما تكون لا تجزي ولا تعزي؟ أو أنه يريد أن يقول إن هذه ـ أيضاً ـ من الغيد اللائي يتعرضن له ويشجعنه، بدليل البيت الخامس

ألا تستكنُ الغيدُ وسط قصورها مخافةَ سلاّب السلاطين قتّال

ويحضهن على البقاء في قصورهن»...

ألم الفراق شديد، والأمل باللقاء لم ينقطع ولكنه فيْ حكم المستحيل، وتضطرب النفس ويضطرب العقل، ولا يعود الشاعر يعرف ما يجب وما لا يجب.. وكل شيء يذكره بها، ويدعوه إليها، فيستثير الماضي حياً، ويبعث الألم بعد الألم... كل شيء، والأطلال أول شيء. أجل الأطلال، والمقصود بها آثارها من قصر وخباء، وروضة ومكان بعينه، ما تبقى من الآثار وما أكثر مروره بها ووقوفه عليها فهي معه في البلدة وخارجها، في المتنزهات والمواقع. في نزوى وحول نزوى، وامتداداً إلى بهلى... يقف، ويستوقف، ويبكي، ويتذكر أيام الوصل في جمالها ويعترضها الظعن والرحيل والناقة والحادي ويعود إلى الاختلاج والاضطراب... ومن ثم يعزي نفسه حين يستغرق في عنصر الفخر المتمكن منه فهو المليك بن المليك والسلطان والشجاع البطل... ليعود بعد ذلك يبدأ الحكاية من أولها لدى أول «طلل» يمر به... وما أكثر «الأطلال» في منح، والفليج، وبين العقيق فحاجر[31].

وهكذا يعود للطلل مجده القديم ومكانه الحق من الشعر العربي، بعد الذي ابتذله ما ابتذله منه أهل المدن بما في ذلك البصرة والكوفة وبغداد وقرطبة والقاهرة... فوقفوا دون أن يقفوا، ورأوا طللاً فيما لم يكن طلل فكانوا

مقلدين - مع فضلهم في مواصلة تقليد كريم كان واقفاً حتى كأنما صار رمزاً لديهم - ولم ينجوا من سخرية شاعر قديم فضلاً عما كال لهم النقد الحديث من ذم.

ولكننا مع سليمان بن سليمان النبهاني في موقف خاص، وصحيح أنه استوعب القصيدة العربية منذ «قفا نبك»، وأنه تأثر بها، وسار عليها، ولكن الصحيح أيضاً، أنه ما زال يعيش كما عاش «جده» امرؤ القيس، وما زال «الخباء» حياً، وظعن الأحبة متصلاً ولا تبقى بعد ذلك غير الآثار تذكره وتستثير كوامنه، وتبعثه على القول مبتدئاً بها.

وهكذا قصائده بموذية مبتدئة - كلها - بالوقوف على الآثار، والوقفة - نكرر - طبيعية، من شأن حياته وحياة «الحبيبة»، ويلتقي حينئذ التقليد بالأصيل ليفرض وجوداً مقبولاً بل مستحباً وكأنه الفطري، وهو كذلك... يقف ويبكي ويستنطق ما لا ينطق ولا يواسي ثم تستمر الحكاية، وتتكرر دون كلل، ولم الكلل وهي العلاج الوحيد والحل الباقي بيده؟

إذا بلغ ما تحصيه من قصائد الديوان في موذية تسعاً، فإن هذه القصائد التسع كلها[32] تبدأ كما كان يبدأ الشاعر الجاهلي، وتدرك أن صاحبك ما زال جاهلياً فطرة لا تصنعاً، وواقعاً لا مثالاً، وأصالة لا تقليداً. في حدود مايعاني فعلاً لدى الأطلال متصلاً اتصالاً تاماً بما تلقى حياً عن الشعر الجاهلي الذي استوعبه وعاش معه.

خليليَّ مرّا بالرسوم الدوائرِ	لموذيةٍ بين العقيق فحاجرِ
قفا نبك بعد البين علّ بكاءنا	يبرِّد تبريح الغرام المخامر
وإن لم تكن إلاّ طلولا هوامداً	صوامتَ لم تردد جواب المحاور
وقفنا، فسلمنا جميعاً وإنما	من العِيِّ تكليمُ الموامي القوافر

ص 131

أمن رسم دارٍ كاليماني المخلَّقِ	تهللَ إلاّ أنه لم يُشَبْرَقِ
عفا غير آريٍّ وأشعث مفردٍ	وسُفع يحاميم وأطحل أورق
كأن محيّا ربعه رَقَّشَتْ به	سطور يمين الكاتب المتألق
تصابيتَ حتى بَلَّ مما وجدته	نجادَك جاري دمعك المترقرق
أتبكي وما أبكاك غير معاهدٍ	كأن بقايا رسمها سحق يلمق
لموذيةٍ أقوت سنيناً وغيَّرت	معاهدها أيدي البِلى والتفرق
محتها الصَّبا حتى تبدَّت عِراصُها	مُصوحاً وحتى رسمُها لم يحقّق

وحتى كأن الحيَّ لم يغنَ قبلها بجرعائها والشملُ غير مفرق

ص175 ـ 176

ولا غرو أن يترسم ـ بعد ذلك، أو قبل ذلك الأمثلة السائرة للقصيدة «الجاهلية» مبتدئة بالرسوم والأطلال وما تثيره الرسوم والأطلال من أحزان وذكريات، وعلى رأس ذلك لامية لامرىء القيس تعد قرينة اللامية المعلقة:

ألا عِمْ صباحاً أيها الطللُ البالي وهل يَعِمِنْ من كان في العُصُرِ الخالي..

فيقول ـ متأثراً ـ مع ذلك ـ بالمعلقة نفسها:

لموذيةٍ بين الأنيعم فالخالِ محلٌّ محيلٌ طاسم ماصحٌ خالي
بمنعرج العرجاء بين سويقةٍ فحبل الأراكِ فالشريف فأوغال
فأدعاص قوٍّ فالأطيط فمنعجٍ فبُرقة يبرين فأكناف أورال
معالمُ ريّا الردف مخطفةِ الحشا نؤوم الضحى حُسّانة الوجه مكسال

ص 195

ولا شك في أنه استوعب شعر امرىء القيس استيعاباً تاماً ، ولم يأت الاستيعاب للتقليد ـ أو للتقليد فقط ـ وإنما لقرابات كثيرة منها نمط الحياة ونمط المجتمع، وبقاء مفردات وتعبيرات وصفات حية على مدى ما بين الشاعرين من زمن. وتبقى «المعارضة»[33] غير التقليد.

ويعارض كعب بن زهير في بانت سعاد:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ متيَّمٌ إثْرها، لم يُفد، مكبولُ

يقول:

نأتْ بموذية القودُ المراسيلُ عني، فقلبيَ في الأطعان متبولُ

ص 220

وهكذا كان لموذية ـ بعد راية ـ شأن مهم في حياة سليمان بن سليمان وبلغت أن استثارت موهبته الشعرية فانبجست عن شعر أصيل بعد ما استطاعت أن تحتل من قلبه وتزيح من مكانة راية، وقد يبدو طبيعياً أنها لم تبلغ مبلغها ولم تلهمه إلهاماً[34]

وأياً ما كان الفرق بين شأنيهما فإنهما دخلا تاريخ الغزل العربي عن طريق سليمان، وإذا فات المؤرخين أمر ما قاله سليمان فيهما من قبل ، فلن يفوتهم بعد اليوم. أما ما قاله من غزل في غيرهما فهو غزل فقط، وليس بذي قيمة إزاء ما قاله فيهما.

الهوامش

1 ـ الديوان 89، 89، 13، وسكينة 89، 90 ورباب 70، وأم رباب 89، وأسماء 205.

2 ـ أول الفصل الثاني أعلاه.

3 ـ هـ 195 «موذية عشيقته المفضلة بعد راية» .

4 ـ هـ 99 «الصُّفيحة متنزه الشاعر شرقي بُهلى به ماء جارٍ وأشجار وأزهار».

5 ـ 198 ـ 9 «يضيق الإزار الذي يلف ردفها لامتلائه».

6 ـ 250، «البهكنة: الشابة الغضة، الشموع: المزوح اللعوب. جَماء العظام: يستر لحمها عظامها لسمنها . رداح: ممتلئة الردف يجذبها حين تريد القيام لثقله» وتنظر ص 59، 223، 74، 102، 313.

7 ـ 105 ـ 106 «بلا ختر: بلا غدر». ظلت سما جفني : أبكتني، «ندت بالدموع» جفني.

8 ـ 120ـ 122 «هوى عذري: منسوب إلى عذرة، والنسبة إليها عُذري...» أقلني «اصفح عني».

9 ـ تنظر ـ على التوالي 22، 85، 249، 264 - 265.

10 ـ 135 ـ 136 في البيت «وبتنا» : «آخر» ، خبر «هذا» وما بعده ما نافية؛ أي ليس لك بعد مجالس أخرى».

11 ـ 262 وردت في الأصل «فأعدتيه» فجعلها الأستاذ المحقق في المطبوع «فأعدتِه» والفرق أن الشاعر حفظ الوزن، والمحقق التزم بقواعد اللغة العربية. وإذا كان للشاعر عذره العروضي في «فأعدتيه» فما عذره في «أقسمني»؟

12 ـ تنظر 124، 132.

13 ـ 74 ـ 75 «ذي جفجف: بلد واسع.. سخاوي أقياف لا أفناف كما جاء في النسخة الدغارية، والسخاوي نسبة إلى السخواء وهي الأرض الواسعة. والأفياف: جمع فيف وهو الصحراء الواسعة أو المكان تضطرب فيه الرياح. وقوله ومن عقد: جمع عقدة وهي الأرض التي يكثر فيها الشجر» ـ وربما المرتفعات.

النجد: الرجل الماضي فيما لا يستطيعه سواه. طِيّة: نية أو حاجة. قدد (جمع قِدة) وتطلق على الفرقة تختلف آراء أفرادها».

14 ـ 87 قال المحقق «كنفت: أُحيطت بالهوى العذري المتجرد عن الشهوات المحرمات، وما إخال هواه كان عذرياً». أجل لم يكن، ولكنه ـ الآن ـ في حال خاصة جداً من الحرمان والهوان.

15 ـ 84 . في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، القاهرة1371/ 1951 ج1/ 51 ـ 56 قال جعفر بن علبة الحارثي:

... عجبت لمسراها وأنّى تخلصت

إليّ...

وفي الشرح... وكما قال الآخر:

وأنّى اهتدتْ والدَّوُّ بيني وبينها   وما خلتُ ساري الدَّوِّ بالليل يهتدي

16 ـ 99 ـ 104 وتنظر 14، 120، 83، 134.

17 ـ 249 ـ 263 «لوى الأرائك : موضع بوادي قريات، وشُحام: موضع بين أمطى والوادي الغربي من عُمان». هيوم: متحير. مسفع الخدين: ثور وحشي بدل جواد. زموا: شدوا للرحيل، مزملات: محملات من الإبل . ذعاليب: جمع ذعلوب، والذعلبة الناقة السريعة. الموامى: جمع موماة وهي الفلاة. هجائن: جمع هجان وهي النوق البيض الكرام، من سراة بني غرير «وفي الأصل بني عزيز» وغُرير فحل من الإبل، والإبل الغريرية منسوبة إليه.

18 ـ 264ـ 269 وتنظر 202 .

19 ـ 232 .

20 ـ هـ 43 . وترد أماكن أخرى حقيقية: يوم الخميلة 40، الفليج 38، بين العقيق فحاجر «وحاجر بلدة بعُمان يسمي حاجر الخفيجي في وادي حطاط» ولا بد من أن تكون ـ كلها ـ متقاربة، قريبة من نزوى وقد يموه المكان 195ـ 196 .

وتنظر ص 165 جبال رامة، البراق. وقد يأتي المكان تقليدياً 195، 196.

21ـ 167ـ 170 وفي الحواشي ، السَّرق : شقق الحرير الأبيض . العوهج: الطويلة العنق. مغاوير جمع مغوار، ومفعال يستوي فيه الذكر والأنثى أي مغيرات على العشاق، وعشق: جمع عشوق وهي التي يشتد عشقها. والمغزلة: الغزالة ذات الخشف.

وينظر 40 ـ (الفُليج «موضع بين تنوف ونزوى وهو نهر صغير».

22 ـ 233 ـ 234 . «البرهره: البضة الغضة. عبوبة: ممتلئة الجسم...».

23 ـ 176 وتنظر 164 ـ 165 ، 196، 220.

24 ـ 176 والبيت الثاني «إذا...» كناية عن ضخامة الردفين لامتلاء الكفل» حتى أن المنطق (الحزام) المثنى على «لفتين» يتفتق ويتقطع... والجهام الغيم الذي صب ماءه.

25 ـ صفوه، وردت في الديوان «صفوة».

26 ـ 163ـ 164 «النسرين: كوكبان، يحدجون: يضعون الرحال على ظهور الإبل المحبّسات. الذّعاليب: جمع ذُعلوب وهي الناقة السريعة. المواجيف: جمع ميجاف أي ذات الوجيف وهو ضرب من سير الإبل. دفاق: جمع دفوق لأنها تتدفق في عدوها. ألمي: أخفى...».

27 ـ 166 ـ 167، وتنظر 220.

28 ـ 39ـ 40 ـ ولقد أغزّل: أتغزل، والاستعمال كأنه خاص به. ويمكن أن تكون مثلها «عرِدٌ». وربما كانت «بُليثُ» في تقديره بُلَيْثُ.

29 ـ 197 «عطبولة: طويلة تامة الخلق».

30 ـ 197 ـ 198 «الصالي : المصطلي بالنار» «الخشيب: القاطع».

31 ـ وتنظر 195 .

32 ـ 38، 43، 131، 163، 175، 195، 220، 232 ـ وتنظر 166 .

33 ـ وتنظر القافية 175 .

34 ـ وقد تستدعي «المقابلة» بينهما وقفة أطول لدى ما يجدّ من أخبارهما...

5 ـ الفن الشعري

ننظر إلى «الفن» في شعر سليمان بن سليمان النبهاني خلال الشعر العربي مزدهراً أصيلاً منذ الجاهلية حتى القرن الرابع (أو الخامس أحياناً). وسليمان أصيل، بمعنى أنه أعرب عدة تجارب مرَّ بها فأرَّخها نابضة بالحياة، سواء أكانت ضيقة جداً في حب فلانة أو فلانة. وفي هزل هذا «الحب» وحده، أم كانت واسعة ـ ضمن ضيقها ـ في نسبه مادة للفخر، وأحداث من عصره ـ هو محورها ـ قامت على الحروب أولاً فهو بطلها. ومع الشجاعة متطلبات الزعامة في المجتمع وعلى رأسها الكرم. وقد بقي المجتمع العُماني ـ على الرغم من خطوات مدنية ـ ذا صلة مباشرة بالبداوة، وفيها الصحراء والإبل والخيل والطعن والصيد. وإذا اتصلت أغراض النبهاني بأغراض الشعر العربي تردد لديه من المعاني والألفاظ والتركيبات ما سبقه إليه شعراء العربية الكبار، وسبقوه كذلك إلى وجوه البلاغة وقوانين العروض والقافية...

وحين يكون سليمان بن سليمان النبهاني على حظ ملحوظ من الموهبة، وثراء من غنى التجربة، ويتجه مبكراً إلى كنز التراث الأدبي: يتعلم ويعجب ويحفظ ويعب عبّاً... فإن ذلك كله يستحيل مزيجاً في نفسه لينبثق مزيجاً في شعره. فهو ـ على هذا ـ شاعر أصيل، لا نقول عنه إنه مقلد، إذا قصد بالتقليد الضعف وتكلف المرء ما لا يحسن شأن العشرات في قطره والمئات في الأقطار العربية من معاصريه وقد شغلوا بالشكل دون المعنى، وقلّ دون أن يدلوا على فطرة.

إن سليمان شاعر أصيل، وما نراه من ظواهر ترجع إلى التقليد، إنما هي سمات الشعر العربي وسمات ورثها شاعر موهوب من أبناء القرن التاسع ـ العاشر (الهجري) فاستوعبها حبّاً فعاشت في نفسه فاستخدمها لدى باعث خاص وكأنها ملكه الموروث أو المكتسب . فهو يرق حيث يدعو الموقف إلى الرقة، ويخشن

حيث يدعو إلى الخشونة، ويكفيه من تناقض المواقف ما بين الصحراء والناقة وبين راية وموذية. وكثيراً ما فسح المجال لشعره على رسله لأنه لم يكن بالشاعر المحترف للشعر، وإنما هو شاعر ملك، أو ملك شغفه الشعر حباً. وفي الأساس من الشعر العربي المزدهر، بشعر الجاهلية. أجل شعر الجاهلية، ولكن الشاعر عُماني له تجربته. ومن هذا الامتزاج بين الجاهلي والعُماني، وبين امرىء القيس والنبهاني يأتي النظر في فن النبهاني.

واللغة من أول ما يطالعك وأنت تنظر في ديوان النبهاني. أما المأنوس منها فتفسيره أنه يصدر من شاعر بعد زمنه عن زمن الجاهلية، وأنه يصدر كذلك في الموضوعات الباقية على الزمان، والمكان من أطوار النفس الإنسانية، وتبقى معها مفرداتها (وتركيباتها) المناسبة. ومن تلك الموضوعات الحب، والفخر والرثاء والعتاب حين يكون المرء فيها صادقاً مع نفسه. وحظ سليمان بن سليمان النبهاني من هذا غير قليل، وانه لا يكاد يكوّن قضية في الدراسة ولا يكاد يستفز لأنه الطبيعي المنتظر، ولا سيما من شاعر غير محترف.

ولكن الذي يكوّن قضية، ويلفت النظر هو غير المأنوس من المفردات (والتركيبات)، ولنقلْ الجاهلي في المادة الجاهلية التي تؤلفها الصحراء والناقة والفرس والأطلال والظعن وثور الوحش. وحظ سليمان بن سليمان النبهاني من هذا كثير ويصعب على امرىء إدراكه وفهمه ما لم يكن قد أدرك الشعر الجاهلي وفهمه لفظاً (وتركيباً). وإذا كنا قد عرفنا العوامل التي أدّت إليه فلنقل: إنك قد تجد ـ وتجد فعلاً ـ في لغة النبهاني ما لم تجده في الشعر الجاهلي. ولا يعني ذلك أن الشاعر يختلق، وإنما يعني ما كان في الجاهلية واستعمله الشعراء دون أن يصل إلينا شعراً بدليل أنك تراه ـ أو ترى أكثره ـ في المعجمات وكتب اللغويين. وقد تتعب قبل أن تجد. ولعلك لا تجد.

ولا أريد بهذا أن أنفي عن النبهاني خطأً يقع فيه أو جهلاً يعتريه وقد علمنا أنه لم يتبحر في الدرس اللغوي ، وأن ما احتازه من اللغة جاءه عن قراءة الشعر وحفظه والإعجاب به، وإنما أفضل أن نتأنى في الحكم ونرى في الذي يرد في النصوص ما قد تفقده الدروس. ثم قد يكون فيما يبدو لنا تصرفاً «نبهانياً» ما يرجع إلى اساس، وما يمكن تخريجه، وما يقبل طريقاً تتوسع به اللغة.

أريد أن أقول ـ باختصار ـ قد وقع هذا. وإن لغوياً معاصراً ـ لنا ـ هو الأستاذ عز الدين التنوخي ـ عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ـ وقف عند غير قليل منه وهو يتولى تحقيق الديوان وشرحه في أناة وأمانة ومعه علمه ومصادره، فنبه له ـ بلطف ـ

وحاول أن يخرّج بعضه، وقبل بعضاً آخر وجد له سنداً سابقاً عليه. وأرجع الأستاذ التنوخي بعضاً من اشتقاقات النبهاني إلى جرأة في الشاعر. ومن يدري فقد يرجع عدد من هذا إلى لغات عربية لم تصل إلينا، من لغة القبائل اليمنية في الأقل.

ومهما يكن من أمر، فإن الفصاحة تبقى صفة سائدة للغة سليمان بن سليمان النبهاني. ويبقى الغريب من مفرداته كثيراً، يمثل جانباً مهماً من لغته. ولنقرّر أن هذا الغريب إنما هو غريب علينا لبعدنا عنه ـ أو بعده عنا ـ في التداول لارتباطه بحياة خاصة، أما لدى النبهاني نفسه فلم يكن غريباً لاستيعابه إياه شعراً حبيباً إليه، ولقربه من حياة ما زال هو نفسه يزاولها فعلاً وفيها الصحراء والإبل والخيل، والأطلال والصيد والظعن. وربما زادت على ما وردنا من الشعر الجاهلي تكراراً وتنوعاً وتصرفاً وبما لم يدخل فيه أو لم يصل إلينا. ولا أدل من يسر هذا «الغريب» عليه يسر استعماله إياه في نسيج شعره شأنه في استعمال المأنوس. ولكلٍ مقام ـ كما رأينا.

ومن أمثلة هذا «الغريب» علينا الذي لم يكن غريباً على الشاعر الجاهلي أو غريباً على الشاعر النبهاني:

الفراعل (ص15)، القدامس، مسحنقر (18)، ساهكة (22)، الهلباجة (49)، يخرذل (50)، صهصلق (77)، عنقفير (81)، بخنداة، دَدٍ (85)، عثوثجتي (100)، الهثاهث (109)، اشمعلّ (312)، عيسجور (60)، خدلّجة (266)، غلافق (314).

وربما كرر كلمة واحدة أكثر من مرة في قصائد مختلفة لأنها الكلمة الدالة لديه، ولأنها في الحال التي تكرر. ومن هذه في صفات المرأة: بهكنة (ص 13، 32، 47) شموع (ص 8، 13، 23، 45، 85) برهرة (15, 55) ويجمعها على براره.

وله ولع خاص بوصف السيف بالخشيب (ص 35، 66) ووصف الحصان بالأزبّ (ص50، 101) ووصفه نفسه بالشمري (43).

ولك أن تقول إن من هذه المفردات ما يثقل على اللسان أو الأذن وكأن الشاعر لا يرعى هذه الناحية، ولا يتخير ألفاظه من أجل الوقع الشعري. لك ذلك، وربما كان في كلامك صحة، ولكنها لدى الشاعر سهلة وضعها في مكانها المناسب للدلالة على معنى قصد إليه، ولا يريد لنفسه أن يكون في ذلك على غير ما كان امرؤ القيس أو طرفة...

ولا نريد أن نحمله المفهوم الذي أوصله إلينا الشيخ عبد القاهر الجرجاني بإرجاع شاعرية اللفظة إلى مكانها من النظم، لأن الشاعر لم يدل على علم بهذا المفهوم

ولأن مفردات ـ منها التي ذكرنا ـ تثقل النظم ولا تسوغها سهولتها على لسان الشاعر وأذنه.

وتكثر في شعره المواقع الجغرافية شأنها في الشعر الجاهلي. وفي هذه المواقع التقليدي الموروث من الجزيرة ورد إليه على لسان الشعراء الأجداد حتى صار من لوازم الشعر والشاعر. ومن ذلك: رامة، توضح، فيد، اللوى، برقة، عالج، عنيزتين، نجد، زرود، الجفرين.

ومنها التي عاش فيها وعليها وله خلالها أوطار وذكريات ما بين نزوى وبهلى خاصة وفيها وادي شجب، الفليج، الفلج، المظ، العميري، العقيق، كبكب، الجوية، الصوى، منعج، الحبوب، الحبيل، الصفيحة، جفجف، صوى، الأجرد، سخاوي، اقبان، عقد، برقعيد، وادي العرار، جبال آيهة، ذات الأثل، الوجين، سحام، أزكى، عُمان...

وقد يرى قارىء ثقلاً في عدد من أسماء هذه المواقع ولكن اقتران هذه الأمكنة بحدث معين من حياة الشاعر يدعو إلى ذكر المكان كما هو باسمه واقعاً ويبعد عن الشاعر ما قد يرد على خواطر الآخرين. ثم ما شأن الآخرين ـ في هذه الحال ـ بأمر يخص الشاعر وحده وللفظة خفَّت ـ أو ثقُلت ـ وقع في نفسه أولاً.

وقد نجد لدى سليمان مفردات مألوفة لدينا يستعملها استعمالاً غير مألوف مفردة أو جمعاً، في فعلها الماضي أو المضارع، وفي صيغ من الاشتقاق.

ومن ذلك المالك (ص 51، وتتكرر) بمعنى الملك، ومثلها «المليك» (ص 64 ـ 65 وتتكرر)، والأملاك (ص 11، 55 وتتكرر) بمعنى الملوك.

ومن الجموع حمائم غرّد (ص 39) ، وبيض خِراد (ص 80، 161)، والأتوات (ص51) ، والظهور (ص 77 ـ جمع ظَهْر)، الزكوات (ص43 جمع زكاة)، الزِّهِرات (ص 48 كالأنجم الزّهرات)، ضياغيم (ص 269).

ومن الأفعال وزع (29، 41)، محَّ (134).

تأجّ (266: تتأجج)، أغزَّل (29: أتغزل)، يبوع (144 يحرك باعه)، يحاجم (27)، اهتتفتُ (25: هتفت).

ويكثر من صيغة الفعل، انفعل، انفعلت، ومن ذلك انهويت (40: هويت)، نخضع الناس (219)، انخضعتُ (260)، انخبل (49)، انهمل (233).

ومن المشتقات ثميل (48: ثمل)، معوَّج (54: عائج)، مهيوم (276) هيوم (46، 249) مهيوب (145، عاتق (ص 207 معتّق) وجّاب الجنان (214)، الزمّام (200، الذي يمسك زمام الفرس)، المخلخل (108 موضع الخلخال)، تجزيل (ص 46).

ويمكن للمستقصي أن يضاعف هذا العدد خدمة للغة العربية في الوقوع على مفردة أو جمع أو اشتقاق لم يصل إلينا (غير ما وصل إلينا على ندرة) قياسياً أو من لغة اليمن أو استعمالاً خاصاً لا يشترط أن نعزوه إلى الجهل فقد يكون الشاعر قرأه أو حفظه أو سمعه أو ورثه في الحياة اليومية أو تصرف بمقتضى سليقة ما زالت تحتفظ بشيء من السلامة.

ولا بد ـ مع هذا ـ من الاحتياط، ومن دواعي الاحتياط أن تجد عند الشاعر أصفحت (67) بدل صفحت «هو عالم أن «صفح» ثلاثي بدليل القافية «صافح»»، وتجد «نجلاوتين (93) ومثنى نجلاء نجلاوين ـ وهو في الحالين خضع للوزن، وهذا الخضوع غير مسوَّغ. ويستعمل النبهاني الرباعي بدل ما كان المعتاد وفيه استعمال الثلاثي حتى عد الرباعي ـ أحياناً ـ من الخطأ فيقول «أوقفت المطايا (ص 108) مع أن الثلاثي (وقف) لازم ومتعد، والشاعر نفسه يعرف ذلك ويستعمله (ص 227). وربما كانت «أهاج» (99) من ذاك إذا لم تكن الهمزة للاستفهام.

واستعمل الثلاثي اللازم متعدياً فقال «عوجا المطي على رسوم المنزل»، ومثلها جاد وجوداً» (ص 218) وقال (ص 304) «يا مدلجي ليلهم» ويجمع جائع على جوائع. ويذكر في لغة سليمان بن سليمان النبهاني أنه قد يميل إلى تسهيل الهمزة فيقول: راد بدل رأد (ص 44).

مهفهفةٌ راد الوشاحين غادة رداحٌ ميود القد أنّى تثنتِ

وكان من الممكن أن يقول: رأد.

ويقول : يطفي بدل يطفيء (ص 226)، عوجا.

واستمطرا سيل الشُّؤون فعلّه يطفي غليلَ العاشق المتعللِ

ولا بد من أنه خضع في ذلك إلى ضرورة الوزن

ويقول رؤسهم بدلاً من رؤوسهم (ص 50):

منهم رجال روسهم لصوارمي ومنهم رجال في الحديد عفاتي

وترد هنا كذلك مسألة ضرورة الوزن.

وتتضح الضرورة لديه في قصر الممدود، وهو كثير: القضا (276)، الرّشا (92)، السخا (67)، الولا (50)، فعما (21)، الوفا (217)، الظبا (223)، بكا (267)، عزا (259) .

وتجد عنده أوما (232: أومأ)، وأوضا (45: أوضأ)... ثم يال تبع (145: يا آل تبع ـ وهي مألوفة في شعره، ولعلها يمانية، ومنها:فهل أنا في ذا يال همدان ظالم.

وإذا كان قصر الممدودات من الضرورات الشعرية فاني فضلت الوقوف عنده في موضوع لغة الشاعر.

ويضايقه التركيب بسبب من «البدايات» أو «العجلة» أو الجهل فيأتي بالأقل استعمالاً فيقول (مثلاً) في «مَعَ» (مفتوحة العين) مَعْ (ساكنة العين)- ص 67:

ولديَّ مَعْ تلك المحامد والسخا شرف بروقيه الكواكب ناطح

وسكون العين وارد في اللغة، ولكن الأكثر فتحها...

ويقطع همزة الوصل (ص 85)

بطيفك قد قنعت فإبعثيه وفقد الماء يقنع بالصعيد

ولعله يفعل ذلك متابعة للضروات.

ويقع في خطأ نحوي أو صرفي، فيقول (ص 53)

ظللت أذود القوم بالرمح مستحٍ من الله أن أمضي عن الخفرات

والحال تتطلب أن يقول: مستحياً

ويقول (ص 49):

وأحلم سكراناً وصاحٍ فلا ترى موالينا مستشعراً فرطاتي

جعلها المحقق: وأحلم في سكرٍ وصحو فلا ترى، لأن الصواب: وأحلم سكران وصاحياً.

ويغيّر تركيب حروف ما صار مصطلحا فيقول:«لنا الفخر في الإسلام والجهل قبله» (ص 51) والمطلوب أن يقول: «الجاهلية».

ويجزم ما حقه النصب (ص 1)

وأدأبُ في الفخر حتى أنالَ أسناه أو يخترمْني الدأب

ويُظهر الحركة الثقيلة على الباء، وقد لاحظ المحقق ذلك عليه في «في سامي الشرفات» (ص 48) فأظهر الكسرة، وفي «وترعد أيديُ الأملاك خوفاً» (ص11) فأظهر الضمة ، وكذلك في «فارقني ، والخاليُ البال هاجع» (ص 35) - وقرر التنوخي أن هذه الحال عادة للشاعر.

ومضى الشاعر في ذلك إلى أن قال (ص 218)

أُعطيُ الخيل في الأجلَّة والعسجد والإبل والإماء والغوالي

وقال المحقق «هي في [النسخة الخطية] الكندية «أعطى الخيل» بالهمز ليستقيم الوزن. ولو قال «أهب الخيل» لكان أوزن .

وكثيراً ما يدخل «قد» على المضارع، ولا تفيد «قد» في هذه الحالة «التقليل» كما رأى اللغويون إنما هي لديه «تحقيق» وقوة وما لا يناقش في صحته لديه:

ولقد أجود إذا سكر ... تُ ولا أُقصِّر إن صحوتُ

(ص 1)

يمضي الحسام إذا أمر ... تُ، وقد يكف إذا نهيتُ

(ص 42)

أجود ارتياحاً بالجميل تفضُّلاً ... ثميلاً، وقد أحبو بلانشوات

(ص 48)

* * *

أنا التبَّعُ المسعودُ قد تعرفونه ... إذا ذكرت عند الفَخار التبابع

(ص 156)

وطبيعي أن لهجته تؤكد تحقيق ما بعد «قد». وإن للاستعمال شواهد، ومن النحاة ما خرَّجها على التحقيق. ثم قد يكون الأمر لديه وراثة من لغة يمنية.

وتظهر لغته اليمنية في مواقع أكيدة يحسن بالدارس أن يعلمها سلفاً، وأن يفيد منها لغوياً. ومن ذلك أنه يلحق بالفعل علامة الجمع للذكور والإناث، فيقول (ص 48) :

إذا ما انبرين الغانيات عشيةً ... تغنيننا في سامي الشرفات

قال الأستاذ المحقق: «... ذكرنا في دراسة الديوان قوله (انبرين الغانيات) على لغة البراغيث [أكلوني البراغيث] والصواب إذا ما انبرت الغانيات».

وما هي بلغة البراغيث وإنما هي لغة يمنية، والشاعر من العتيك من أزد شنوءة من قحطان (اليمن) على لغة طيء ـ ينظر د .محمود الفجال في «نظرات نحوية في لغة طيء ـ مجلة «العرب» ، الرياض ، ج(11، 12)، سن 24 الجماديان 1410 / كانون(2,1), 1989 ص 723 -.

وتتكرر الحال ص 46 .

ولدينا من لغة طيء (اليمن): إبدال الهاء من الهمزة (ينظر الفجال ـ نظرات...) فتصير أرقت: هرقت، وقال النبهاني (ص 45) هريقت يريد أريقت.

ومن لغة طيء «إبدال الميم من اللام في أل المعرفة»، قال النبهاني (ص 35) :

وأغبر عوّاءٌ به الذئب أقفرت ... من الإئس إلا م الوحوش سباسبه

قال الدكتور الفجّال «وهي اللغة المعروفة بالطمطمانية نحو قام امرجل، أي قام

الرجل، طاب أم هواء أي الهواء» ـ لغة طيء وحمير والأزد.

ومن اليمنية يمكن أن يُردَّ قوله (ص 156):

أنا الضيغم ابن الأشد، والأسد في الوغى فريسي، ومن فرسي الأسود والجوائع

قال الأستاذ التنوخي: «ابن الأشد: بفتح الهمزة أي الأزد، وهما لغتان».

وتبقى الخلاصة في أن لغة سليمان بن سليمان النبهاني انها لغة فصيحة، ومن أسرار الفصاحة أن الشاعر أخذها عن كبار شعراء العربية ولا سيما الجاهليون.

وإذا وجد لفظ من خارج الفصاحة فهو قليل، ويرجع إلى التداول في عصره أو إلى أنه صار كالمصطلح. ومن هنا قال «الجلنار» ـ وهو دخيل، مرة واحدة وقال «التخت» (بمعنى العرش الملكي...) مراراً (148، 149، 158، 271، 291، 253).

واستعمل ـ مرة ـ اللكوك (جمعاً للُك «الأعجمية» بمعنى عشرة آلاف) فقال (311):

أنا ابن الملوك، ومعطي اللكوك وباري الشكوك ووافي الذمم

ويمكن أن يكون لفن «التسميط» أثر في اختيارها هنا فضلاً عن التداول اليومي، وما يمنح هذا التداول اللفظة من قوة يقصدها الشاعر بكل سبب، ومن يدري فقد يكون غياب لفظة واحدة ـ في العربية ـ تدل على عشرة آلاف وإقعاً إلى ذلك، والرجل باحث عن التكثير، وإلا فبإمكانه أن يقول: «ومعطي الألوف»، ولكن «الألوف» أقل وقعاً من «اللكوك» التي هي عشرات الآلاف...

ونكرر أننا حين نقرر «الفصاحة» لسليمان بن سليمان النبهاني، فمن باب العموم لا الخصوص ، ولاعترافنا بأخذه لغة الشعر عن أعلامها منذ الجاهلية. وأقل ما في هذا التقرير التأني في الحكم ومواجهة الشاعر باحترام. أما الخصوص فيما يتصل بالمؤاخذة أو إمكان المؤاخذة فيدفعنا التأني بإزائه إلى التماس وقوعه في لغة يمنية، أو لدى شاعر علم أو لبدايات الصبا، ولشيء من عجلة تركب الشاعر غير الممتهن، يهمه أولاً أن يشبع الإعراب عما في نفسه، ويضيق وقته عن إعادة النظر وتكرار الإعادة... ثم إلى لغة العصر نفسه، وإلى شيء من «الجهل» كذلك ، وهو ممكن عند العلماء أحياناً.

وحين يغيب عنا تاريخ القصائد، وتاريخ مناسبات النظم، يصعب علينا التقصي التأريخي للصحيح جداً، وما يدخل في الخطأ سواء أكان ذلك في اللفظة المفردة أو لدى التركيبات. وإذا رأينا الصحيح السليم ـ الجميل غالباً ـ هو السائد في الديوان، وهو الذي جعل منه الشاعر الذي يستثير الإعجاب ويستدعيه رأينا ضرورة لوقفة

عند أمثلة مما لم يسد بسبب من «بداية» أو «عجلة» أو «جهل» - وقد رأينا شيئاً من ذلك في الفصل الثاني (أعلاه)، ونرى هنا شيئاً متمماً يشير إلى ضعف في بناء الجملة الشعرية، إخضاع التركيب اللغوي إلى أحكام الوزن.

ونرى ضعفاً - وتكلفاً - في جيمية له (ص 54 - 58)

معوّجٌ أم أنت غيرُ معوَّج   بنت الجديل بدار ذات الدُّملج
إن لم تكن لك نيةٌ في عوجةٍ   برسومها فادْلجْ فلست بمُدلجِ
نهجي كنهجكَ إن وقفت مسلِّماً   فإذا أبيت فليس نهجك منهجي
سلِّم على طلل الحبيب ولا تكنْ   حلف الصبابة كالخلي المثلج...

إنه كلام مرصوف فقط، وكأنه للتدرب بانتظار تجربة حقيقية تشحنه. لو ترك نفسه على رسلها لكان أكثر انسياباً.

ونمضي، لنقع - هنا وهناك، بقصد وغير قصد على أبيات ننسبها إلى الضعف والوهن والتكلف، وضيق الشاعر بالسيطرة عليها أو بتسهله وتركها كما هي نثرية:

... وكم أغنيت من عافٍ فقيرٍ   فأصبح ذا جياد مع ركاب
(ص 15)

* * *

وأوجلت القلوبَ فليس قلبٌ   من الأعداء ليس بذي اضطراب
ومهما قدرتُ فهل أصفحنْ   عن كل من للذنوب ارتكب ؟
(ص 19)

ولديَّ مَعْ تلك المحامد والسخا   شرف بروقيه الكواكب ناطح
(ص 67)

يومَ كاد البين أن يقتلني   حين لما يتَّرِكْ فيَّ رمقْ
(ص 166)

ويبلغ من السهولة أحياناً إلى ما يسيء إلى النظم:

... فاخشوا عقابي واحذروا   سَخطي فإني ذو انتقامِ
وعلى النبي وآلهِ   أزكى الصلاة مع السلامِ
(ص 304)

... أنا ابنُ نبهانَ ماءِ السماءِ   سلالة هودٍ عليه السلام
وأختم شعري بذكر الرسولِ   نبي البريَّة، نور الظلام
(ص 311)

وأكثر ما تركبه الركة عندما يحاول أن يبدو حليما (ص 9)، (ص 67) (ص 318)، (ص 336 ـ 343).

وإذا كنا قد رأينا «غرابة» اللفظ و«غرابة» التركيب في موضوع الأطلال، والصحراء، والناقة والفرس والصيد... وكأن ذلك أمر طبيعي مقبول يلمح فيه القارىء تمكناً للشاعر ويقع على تجربة خاصة له تلتقي مع تجارب عامة للسلف... فإننا قد رأينا ـ كذلك ـ رقة للشاعر لتجربة خاصة، لا بأس في أن تلتقي بالتجارب العامة، لأن المهم هي الأصالة، ثم المهم ـ الذي نحن فيه ـ أمر الرقة والتمكن والسلاسة، والنبهاني في عامة شعره بين هاتين الحسنيين: أصالة «الغريب» وأصالة «المأنوس».

وهذه التائية من أمثلة التركيب المأنوس:

أيا من لطرفٍ واكفِ العبراتِ	وقلبٍ كئيبٍ دائمِ الحسراتِ
وإن لاح برقٌ، أو ترنم طائرٌ	تصعَّدْن من فرط الأسى زفراتي
صبابة حزنٍ تعتريني ولوعةٌ	إذا عادني عيدٌ إلى صبواتي
فلله عينا مستثيب شؤونَها	مآقيهما يسفحن منهمرات
لياليَ ما لي شافعٌ غير رونقي	إلى وَطَري مع تلكم الفتيات...

(ص 46)

لقد بلغت القصيدة اثنتين وستين بيتاً وهي على هذا الانسياب وهذا النفس وكأنها وردت عليه دفعة واحدة بما في ذلك من جناس أو تضمين عروضي أو تضمين بلاغي و«غريب»..

وتنظر كذلك داليته:

كلفنا بالصوارم والصعادِ	وبالجرد المطهَّمة الجيادِ

ص(80 ـ 83)

وميميته (240 ـ 245).

ومثلهما غير قليل لدى الفخر حماسةً، ولدى راية وموذية غراماً.

وله تعبيرات يمكن أن تنسب إلى الشعر والشاعرية أكثر مما تنسب إلى النثر والنثرية ومن هذه «وكائن» بمعنى «وكم» للتكثير (ص 84، 89، 91) «وكم» نفسها وحيدة أو مكررة (ص 15، 19) و«لكم، ولكم» (ص 41)، و«يا أين» (ص 11) و «فعما لمحة» (ص 104) و«...ما وحسنِك» (ص 85).

ومن الشعر تكرار كلمة واحدة أو كلمتين في صدر أبيات متتالية (أو متقاربة)

مما يمنح إيقاعاً خاصاً ويدل على شدة الانفعال حماسة وفخراً وحباً وحزناً وترك النفس على رسلها، دون أن يكون من غير قدوة له في ذلك لدى امرىء القيس أو زهير أو عمرو بن كلثوم أو المهلهل بن ربيعة...

ولرب، ولرب (41)، أعاذل، أعاذل (66)، كأن، كأن، كأن (27) لنا، لنا، لنا، لنا (148)، وكل (أربع مرات) ص 188، سأترك (ثلاث مرات) ص 189، ولرب (مرتين) ص 41، كأن (ثلاث مرات) ص 27، أفلم (ص 171) ثلاث مرات.

وفي مرثيته لأخيه (ص 148 ـ 153) أحسام (ثلاث مرات)، لهفي عليك (سبع مرات). هذا في شدة المصاب وتعقده.

أما الغاية من الفخر وانطلاقه فالطبيعي الطبيعي لديه أن تتواتر هذه «أنا» والـ «أنا».

أنا الملك القرم، أنا ابن الملوك (ص 95)، أنا (ثلاث مرات) (ص 64) وثلاث مرات (ص 286)، وخمس مرات (ص 217 ـ 218). أما على ص(156- 157) فأنا (اربع مرات) وما يكاد يفارقها حتى يشعر بظمأ إليها ليكررها ثلاث مرات.

وإذا كان للتكرار ما يدخل في «الفضائل» التي ذكرناها، فقد يؤدي الإلحاح عليه إلى ملل السامع وركة الشعر والدخول في «الإطالة» التي لا يقرها «علم المعاني».

ويمكن أن يرى «علم المعاني» إطالةً في أماكن أخرى من القصائد. ففي قوله (ص 51):

لنا الفخر في الإسلام والجهل قبله ... ومن بعد في الآلاء واللَّزبات

لا يرى معنى لـ «قبله» لأن هذا تحصيل حاصل. ومثله قوله (ص 87):

من لي براية أن ترق لعاشق ... حلف الصبابة ساهراً لم يرقدِ

وبديهي أن الساهر لا يرقد. ومثله قوله (ص 93)

لها بشر ناعم كالحرير ... وخدٌّ كجُلْنارها الأحمر

والجلنار أحمر.

وقد يأتي الدفاع عنه أن «قبله» و «لم يرقد» و«الأحمر» توكيد للحال وإيضاح لعمق المقصود، وحين تكون كذلك لا تعد إطالة.

والحقيقة أن عدداً لا بأس به من مواد «علم المعاني» مرت معنا في درس اللغة، وللعدد الآخر وجوده في الديوان بين الخبر والإنشاء، وخروج الاستفهام إلى التقرير، والإيجاز والإطناب، والفصل والوصل، والقصر والتقديم والتأخير.. مع ملاحظة أن

هذه المواد تأتي طبيعية في حدود تصرف الشاعر بلغته، حدود وجودها الطبيعي في اللغة دون تفكير أو قصد من الشاعر إلى أن يوفر مواد علم المعاني، أو يدل على علم له بهذا العلم.

ويكاد يسري هذا القول لدى البحث في وجوه «علم البيان» فهل خلا كلام من تشبيه واستعارة... فضلاً عن أن يأتي ذلك الكلام على قلم شاعر.

ومن تشبيهاته (ص 103):

يشوب بياضها الحرَّ اصفرارٌ   يلوح كفضة مست نضارا

ومنها (ص 45):

كأن شعاع الشمس تحت قناعها   إذا هي من تحت القناع تجلَّتِ

ومن غرائب تشبيهاته (تأثراً بالعصر) (ص 287) يصف الأثافي من الأطلال:

وركَّدٌ مثل نقط الثاء جانحةٌ   على خصيفٍ ثوى سفعٌ يحاميمِ

وإذا قال امرؤ القيس (ص 160):

كأنَّ على لبّاتها جمرَ مصطل   أصابَ غضى جذلاً وكفَّ بأجزل

قال (ص 47) وهو يصف نساءً:

كأن على أنيابها جمر مصطل   ويختلن في وشي من الحبرات

ونترك أنه يريد بأنيابها: أنيابهن لنقول إنه لم يبلغ مبلغ «أستاذه» ولا بد من تكلف تفسير الأنياب باللثاث لنكتسب صفة الحمرة. أما إذا قلت: ذكر الأنياب وأراد الشفاه فقد زدت الأمر تعقيداً.

ولكن لا بد من النص على أن سليمان بن سليمان النبهاني أولع بوصف الثغر وطعمه المسكر أو رائحته العطرة، وهو فيه من المجيدين الذين يعون كل لفظة من التشبيه ومن ذلك قوله (ص 266):

كأن على فيها إذا الليل غوّرت   كواكبه والصبح بادي الملاطمِ
معتقةً من خمر بابل خالطت   مصرَّد ماءٍ من زلال الغمائمَ

وقال (ص 273)

كأن سلافةً صهباءَ صرفاً   معتقةً يطوف بها النديم
على فيها إذا ماالليل ناءتْ   كلاكله وغوَّرت النجوم

وقال (ص 108):

كأنما ثغرها وَهْناً حَصى بَرَدٍ   قد علَّه بسُلاف الخمر خمارُ

وتنظر (ص 124)، وص 129؛وص 135 وص 75، 204، 234.

ويكثر من تشبيه الفم بالأقاح (ص 90، 124، 128) مقتدياً بجده امرىء القيس والتشبيهات لديه ليست قليلة.

ومن الاستعارات «خرست أسياف أملاك الورى» (ص 171)، يد البين (99) وبكى صخر تدمر (129)، سطا البين (260)، سل الحرب بي (29)، أفنيت فقرهُم (64) بضرب ترقص الأكباد منه (81) إذا أسدل الليل جلبابه (240).

أعطيتُ مقودي الغرام ولم أكن أعطي الغرام قبيل راية مقودي
(ص 87)

وأفاد بقوله (40): «لو أشرب السلوان» من قول قديم.

واستعاراته قليلة.

وأكثر كناياته ترد في وصف المرأة جسمياً، ومن ذلك شبعى المرط (ص 124)، شبعى الإزار (ص 326) غرثى الوشاحين (124)، صامتة السوار (55) ريا المخلخل (108).

ولا يستغنى في هذه الحال من الاستعانة بعمر بن أبي ربيعة في «بعيدة مهوى القرط» (ص 196).

ولكنه هو القائل (106)

أبى نهدُها أن يلمِس الدرعُ بطنها وأردافها ما إن تدبَّ على الخصر

وربما كان «الجناس» من أكثر الوجوه البلاغية التي يستطيبها ويسعى إليها بما يدل على وعي في السعي، وتذوق للإيقاع الصوتي الناتج.

ومن ذلك وحاد «حسام عن حسامي»، وآرام رامة (61)، والعهود والعهود (86) و«أسباب السباسب» (24) والشيمة الشماء (226)

فبيميني يمنٌ وفي اليسرى لهم يسرٌ وكلتا راحتي لنائل
(ص 226)

لها بشر لو باشر الورد بعضه» (128). ويدخل منه في التكلف والتزيد (260)

تهوى هواي وأهوى كل ما هويتْ وحاكم الحب في أحشائنا حكما

ويلي الجناسَ النضادُّ (الطباق) وفيه يروح ويغتدي، أبيض وأسود، ضللنا ونهتدي(86)

عهدي بأهلكِ لم يشقَّ عصاهُم دهرٌ يروح على الكرام ويغتدي

تسبى العقول بصبح وجهٍ أبيض بادي الضياءِ وليل فرع أسود
ومتى ضللنا في غياهب ليلةٍ تسفرْ فنبصر في الظلام ونهتدي

وقد يمضي به إلى المقابلة (161):

إذا غربت كانت براح مغاربي وإن أشرقت كانت براح مشارقي

وقد يصطنع على غير عادته فيجانس (ويطابق) ويقابل (ص 147):

فجودي يثْني صرعاً كل ممعرٍ وبأسي يثني ممعراً كل ممعرِ

وما كان أغناه ـ وهو المطبوع ـ عن هذه الصناعة، والجاد عن هذا اللعب؟!

وفي «الاقتباس» دليل آخر على حفظه القرآن، وتمكن هذا الحفظ من نفسه بحيث يعرب عن نفسه مزيناً نظمه دون دليل على تعسف يذكر، أو كأن مفردات منه أو آيات ترد عليه كما ترد سائر مواد اللغة.

وهكذا تجد «من القاصرات الطرف» (127) قمطرير عابس (78) وبعض الظنون... ذنوب (98)، وليس علي... جُناح (50)، وفقد الماء يقنع بالصعيد (85).

فقالت فدتك النفسْ يا تاج يعرب أقلني ولا تحمل عليَّ بذا إصرا
(ص 123)

لنا أنزل الله المديح بقوله: أهم خير أهل الأرض أم قوم تبّع
(ص 148)

ولي أبداً قدور راسياتٌ تناصبها جفان كالجواب
(ص 10)

وإذا كانت المسألة مسألة قراءة وإعجاب وحفظ واستيعاب وتمثل كان للتضمين ما للاقتباس وفعل ما نفذ في نفسه من شعر الشعراء فعله وانساب في نسيجه.

قد أرسل العربي أمثا لاً يحلن لديَّ عقداً
«ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت برداً»
(ص 92)

والبيت الثاني لعمرو بن معد يكرب.

أراق دمي فقال زميل رحلي: «أيدري الربع أيَّ دم أراقا»
(ص 164)

والعجز للمتنبي.

ولقد أجود إذا سكِرْ تُ، ولا أقصر إذ صحوت
(ص 41)

وقد قال عنترة

وإذا صحوت فما أقصِّر عن ندى	وكما علمتِ شمائلي وتكرمي
ولا تبغي عليَّ بغير ذنب	«فإن البغي مرتعه وخيم»

وليس التضمين سرقة لشهرة المضمَّن، وسنعود إليه.

ونقول في مواد علمي العروض والقافية ما قلناه في مواد علوم البلاغة، فلم يدل النبهاني على دراسة خاصة للعروض والقوافي . ولا ينفي هذا ـ هنا ـ سماعه بأسماء البحور والتفعيلات وما يرد أحياناً بشأن القوافي... في مجلس أو إلمامه بكتاب. ولكن هذا شيء، والعلم بالدرس شيء آخر.

إن دراسة شعر النبهاني ـ في هذا الباب ـ تقوم على أساس من أنه سمع شعراً فصيحاً وقرأه فأعجب فحفظ، فشرع ينظم في ظل هذا الذي عليه من شعر العرب قبله ـ أو معه ـ ولعله بدأ بأن يضع قصيدة مشهورة نصب عينيه ويسير مهتدياً بضوئها على سبيل المحاولة وقبول الضعيف الركيك المختل في أول الأمر طمعاً بالوصول إلى الهدف في النظم الجيد، وإلى المطمح في التمكن والتميز.

وها هو ذا الوزن في متناوله فإذا بدأ قصيدة على بحر سار فيها على البحر نفسه، وتأتي قصيدته مرة على هذا البحر ومرة على ذاك. واستجابت له القوافي مع الوزن. وهو في جملة شعره يسير في سياق الشعر العربي وقلْ: عموده، محسناً، مجيداً، ومتعدياً حدود «المجيد» أحياناً بحراً وقافية وبناء للقصيدة وذلك حين اجتاز عهد المحاولة وواتته التجارب التي تشحن القول فإذا هو أصيل بمعنى الذي يعرب عما في نفسه لموهبة فيها، وحين يكون شاعراً «هاوياً» يكون شعره طبيعياً قلما بدت عليه صناعة في أمر.

ونفسه معتدل، وقد يطول، وأكثر قصائده في حوالي الثلاثين بيتاً ولكنه يزيد على ذلك، فله أكثر من عشر قصائد في أربعين بيتاً وفي معدل الأربعين.

وله خمس قصائد في خمسين بيتاً وأكثر من الخمسين، وتسع قصائد في الستين وتزيد، أو ما تزيد على السبعين (في اثنتين منها)، مع ملاحظة أنه في قصائده شأن الشاعر العربي إذ يفضل تصريع الاستهلال، ويجمع في القصيدة الواحدة عدة أغراض . وتطول قصيدة النبهاني كلما استغرق في عشق أو فخر، وكثير ما اجتمع الاستغراقان...

وقلما اقتصرت قصيدة على غرض واحد. ومن هذه القصائد ذات الغرض الواحد ما قاله في وصف الخيل (ص 137، 191).

وتقل المقطعات لديه (33، 235، 239).

والبحر الغالب على ديوانه هو الطويل وقد زاد على العشرين، يليه الوافر نحو عشر فالبسيط فالكامل (إذا لم نجمع له المجزوء والمرفل) فالمتقارب، فالرمل، وللرجز قصيدتان، وللخفيف قصيدة واحدة وللمتدارك قصيدة واحدة.

وقد يفوته الوزن لعجلة أو لما يرجع إلى عهد البداية. والفوات قليل جداً. وفي الديوان ـ كما رأينا ـ مقطوعة من أربعة أبيات هي:

كم غداةَ اللَّقا	من طفلة غفلةْ
منعتها بالمهند	في ظهر جفلةْ
كم ثائر ماجد	في الناس توقف لهْ
بغيت رأسه فطا	ح السيف في كِفلةْ

قال المحقق: «هذه القطعة ليس لها في أبياتها الأربعة وزن ثابت. ولعلها من الشعر الشعبي» وأقول: أولى أن ترجع إلى أيام المحاولة الأولى ـ وقال المحقق إنها «من مشطور البسيط المجنون».

وفي ص 309 ـ 311:

أرقتْ لسجع البكا والحمام وحرمت طيب الكرى في المنام

وقال المحقق: «في النسخة [المخطوطة] الدغارية كتب الناسخ تحت هذه القصيدة «إنها مغلوطة كلها والله أعلم». والصحيح أن من أبياتها ما هو غير موزون ولا واضح المعنى».

ونقول في هذه ما قلناه من تلك لدى الرجوع إلى أيام التعلم.

وتنظر ص 235 .

والشاعر متمكن من الوزن في عامة ديوانه. وربما أشعرت أبيات قليلة جداً بزحاف خفيف، يمكن تداركه ـ غناءً بالمد أو الإشباع ولم يكن خاصاً بالنبهاني ، وإنك لواجد مثله عند امرىء القيس :

وكائنْ قتلتُ من شجاع مدجج رفيع بناء المجد أروع باسل
(ص 214)

ففاجأتُ زمّام الصُّوار بطعنة لها نضحٌ كأنها نضح جريال
(ص 200)

وللنبهاني في ديوانه أرجوزتان: جيمية (58 ـ 60)

رابة يا ذات الخبا والهودج
وربة الطوق وذات الدملج

والدل والصلت الجبين الأبلج
والحاجب المستحسن المزجج..

وميمية (245 - 249):

إلـيَّـةً بـالمشـعـر الحرام والحجـر الأسـود والمقـام
وزمـزم والـرُّكـن والمقـامَ والصلوات الخمس والصيام...

ولا تزيدانَ على شأنه شأناً.

وأهم ما يستوقف الباحث في شعر النبهاني (شكلاً)، التسمبط. وهو لدى العروضيين من «الفنون الملحقة بالبحور الستة عشر» وتعريفه لديهم «أن يقسم الشاعر البيت إلى أجزاء عروضية مقفاة على غير روي القصيدة» أو هو «أن يجعل الشاعر البيت من قصيدة أو كل بيت منها أربعة أقسام ثلاثة منها على سجع واحد مع مراعاة القافية في الرابع (...) كقول امرىء القيس:

وحرب وردت، وثغر سددتُ وعـلـج شـددتُ عليه الحبالا
ومال حويت، وخيل حميت وضيف قريت يخاف الوكالا

هذا مجمل ما جاء عند السيد أحمد الهاشمي في كتابه «ميزان الذهب» وعند معروف الرصافي «الأدب الرفيع».

ولو كنا بصدد توثيق ما رُوي على أنه لامرىء القيس لخالجنا الشك في صحة النسب ولزدنا أنه لم يرد في تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم لديوان امرىء القيس.

أترى النبهاني وقف عليه؟ ليس ذاك بالمهم، لأن في ديوان امرىء القيس غيره وفي قصيدة مشهورة عامرة له هي اللامية، وفيها:

سليم الشَّظى، عبل الشَّوى، شنج النسا له حجبات مشرفات على الفال

وفي قصيدة أخرى من ديوانه في نشرة حسن السندوبي (ص 194):

كـأن المُدام، وصـوب الـغـمـام وريـح الخزام وذوب الـعـسـل
يُـعَـلُّ بـه بَـرْدُ أنـيـابـهـا إذا النجم في وسط السماء استقل

وامرؤ القيس «شيخ» للنبهاني. ويزيد على ذلك أنه يراه عند آخرين منهم أبو تمام.

المهم أن النبهاني وقف عليه واستطابه فأكثر منه. وقد يكون هذا عجيباً وهو الشاعر الذي لا يتكلف ولا يتصنع! ولعله رآه ينسجم متدفقاً مع حماساته لدى الفخر والغرام، فكان مما قال (ص 242):

... وبذل النُّضار، ونحر العِشار ونـهـب الـفـخـار من الأعظم

وتنظر الصفحات 17، 41، 64، 105، 109، 241، 243، وزاد أن أورد في قصيدة واحدة في أكثر من مقطع واحد ما مجموعه (95 ـ 97) أحد عشر بيتاً .

ثم رأى نوعاً آخر من التسميط جاء في اللسان: انه «ما قفي أرباع بيوته وسمط في قافية مختلفة» وجاء «والمسمط من الشعر أبيات مشطورة تجمعها قافية واحدة».

ولم يعدم المعجب بامرىء القيس أن يقع في المنسوب إليه على تسميط كما في جمع حسن السندوبي (ص 196)

توهمت من هند معالم أطلالِ   عفاهنَّ طول الدهر في الزمن الخالي

* * *

مرابع من هندٍ خَلَتْ ومصايفُ   يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيَّرها هوج الرياح العواصف   وكل مسفٍ ثم آخر رادف
بأسحم من نَوءِ السماكين هطال

ثم إن المسمط معروف في عصر النبهاني، وربما عُدَّ دليل مهارة. وها هو ذا في أخريات حياته ينظر ويتأمل ويعاني فيعظ فينظم مسمطاً طويلاً (ص 334 ـ 343)

أما لمحتَ البارق العلويا   نأى يمانياً فشمأليا
حتى إذا آض حياً سوياً   سقى التلاع المعطشات رِيّا
وأخصب الأجراس والغليا
ثم استمرّ رعده وبرقُه   فانهل وشْكا وبله وودقه
والتجّ سيلاً غربه وشرقه   ثم استنار باسماً مبعقه
ردّ البصير أكمها عمياً

* * *

فهكذا كلُّ نعيم زائلِ   وهكذا كل سرور حائل
واعتبر الباقين بالأوائل   إن كنت في الأمة عين العاقل
فاتبع الدين المحمديا

جاء هذا المسمط طويلاً في واحد وثلاثين بيتاً (خماسي الأشطر، والخامس منها كلها يائي) قد يخدم تاريخ «فن التسميط» ولكنه لا يخدم فن النبهاني لما ساده من جفاف ودل على عناء !!

ورأينا أن الشاعر متمكن من الوزن، وقد صار فيه الإحساس به سليقة أو كالسليقة، وربما جار على اللغة كأن يتصرف بما يشي بالجرأة أو بما يؤدي إلى

الإيجاز المخل أحياناً، أو الإطالة أحياناً. وكانت زحافاته قليلة لا يؤبه لها.

وأحسب أنه أفاد من الجوازات سليقة كذلك أو كالسليقة ولعله سمع بالضرورات، وذلك ممكن جداً، ولكن ما هو أمكن له أنه أحسها في نصوص معترف بها قرأها وأعجب بها وحفظها.

ومن ذلك صرف مالا ينصرف وكأن لا بد له من الإفادة منه لما يكثر من تكرار أسماء حبيباته فهذه ـ مثلاً ـ راية (ص 84) والخرائد الحور الحسان:

يطُفن برايةٍ شغفاً وحبّاً طواف الوفد بالبيت المجيد

وهذه موذية (ص 288)

أيامَ موذيةٍ ما إن بها مللٌ والود ما بيننا نصفان مقسوم

وتنظر ص 272 «الموذية»، ص 45 «وموذية»

ومع أن هذا «الجواز» مقبول ووصف بأنه «مأنوس»، ولكن النبهاني لم يلجأ إليه إلاّ قليلاً قليلاً.

وأفاد كذلك من جواز قصر الممدود فجاء ـ لديه ـ الفضاء: الفضا (ص 67)

فمواهبي ملءُ الفضا ومراتبي عنها النجوم خواضع وجوانحُ

وهكذا وردت فعماء: فعما (ص 21)، الولاء: الولا (ص 50)، السخاء: السخا (67)، الوفاء: الوفا (217)، البكاء: البكا (267، 309)، عزاء: عزا (259)، وطبيعي أن يكثر في معارضته مقصورة ابن دريد.

ولا بد من أنه يستريح إلى هذا الجواز ولعله يراه يخفف من ثقل المد أحياناً ويراه ـ كما يراه العروضيون ـ مأنوساً.

وقد يقطع همزة الوصل، كما في قوله (ص 85):

بطيفكِ قد قنعت فإبعثيه وفقد الماء يُقنع بالصعيد

وهذا قليل لديه، وحسناً فعل لأنه مستثقل.

ومرت معنا أمثلة على جوازات أخرى (قليلة) في تخفيف المشدد، أو تثقيل المخفف أو تسكين المتحرك وتنوين العلم المنادى ، وإشباع الحركة وتحريك الميم من ضمير الجمع (هُمُ).

وما قيل في البحر يقال في القافية تمكناً واسترسالاً وثروة في المفردات التي تعينه على الاسترسال، وإن كان الشاعر يقبل خلال ذلك ما يأتيه كما هو، فلا يلاحظ ثقلاً في هذه أو غرابة في تلك. وقد يعود ذلك إلى ثروته كما يعود إلى مفهومه للشعر وللقوافي حتى في موروثها. الشعر عنده تعبير(سريع، انفعالي)،

والمفردات كلها صالحة، مناسبة، مقبولة حين تؤدي المطلوب من المعنى. وما هو بالشاعر المحترف.

وقد رأينا أنه يتعدى «الاعتدال» في النفس فقد يبلغ الستين بيتاً وقد يزيد.

ومن أدلة طبيعية القافية لديه، أنه لم يلزم نفسه بأن يستوفي ديوانه الحروف كلها فتجنب ـ دون قصد ـ الخاء والذال والزاي والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والغين ـ ففي مفردات هذه الحروف ثقل إذا طالت القصيدة، وربما ألزمت صاحبها بالتأني والبحث والصبر.

وجاءت الميم واللام في طليعة قوافيه (حوالي 15 لكل) تليهما الراء (حوالي10) فالباء (حوالي 9) فالعين (حوالي 6) فالدال (حوالي 5)، وللتاء (3)، والجيم (2)، والحاء (2) والسين (1) والألف المقصورة (1) اقتضتها المعارضة.

وقد يبدو مستغرباً ندرة السين إلى هذه الدرجة، وغياب الفاء غياباً تاماً.

والنبهاني يقبل للقافية ـ كما لغيرها ـ وما يأتيه، وفي الذي يأتيه غريب أو مستثقل، ولا بأس، فكله لديه سواء، وماله غزير، ولم يكن بدعا بذلك في الشعراء.

وهكذا ترى في جيمية لديه (ص 4) قوافي على الغاية من الغرابة: همعج، يلنجج، عوهج، معسج.

والطول يتطلب الغرابة وأية لفظة تصلح للقافية، وإنك لواجد في تائية له (ص 43)... ارجحنّت، اسبكرت.

بل إن تائية أخرى (ص 49) حملته على تصرف غير مألوف في الاشتقاق المتآتي (الأحمق)، المتعاتي (المتكلف العتو)، وفي الجمع: تحفاتي، خرمات، الزكوات، الأتوات.

وقد تحمله القافية على أن يقع في الإيطاء فيعيد لفظة بعينها وبمعناها قافية قريبة في ما لا يقل عن سبعة أبيات كما فعل بـ «لم يرقد» ص 87 ولم يفصل القافيتين إلا بيتان فقط.

والحق أن هذا قليل جداً لديه.

وتحمله على الإقواء كذلك ـ وإن قل ذلك لديه ـ فيحرك المجرى بحركتين مختلفتين ففي لامية مرفوعة اللام (ص 187):

ألا هبلتك يا «صعبُ» الهَبولُ   أصاحٍ أنت أم سَكِرٌ ثميلُ

يقول (ص 189)

يميناً لا نعِمتُ بذات دلٍّ   كعابٍ أو يُرى صعبٌ قتيلُ

والنحو يشترط «أو يرى صعباً قتيلاً».

وفي ميمية مجرورة الميم (ص 276)

عقابي أمرّ من العلقم وعزميَ أمضى من المخْذَمِ

* * *

ولبي يشايعني في الخطوب ورأيي يحاكي القضا المبرم

وهي: المبرما.

ولكن السناد لديه كثير، ففي أول بيتين من تائية له (ص 38- 43) نقرأ في القوافي: شكَوْتُ وبُلِيتُ، ولو سرت في القراءة لرأيت ما يشبه التبادل بين الواو والياء - وقد يكون طول القصيدة مسؤولاً عن ذلك، ولكن الشاعر لم يدلنا على تنبهه إليه. ومثل ذلك ص 83 «ببرقعيد» و «الهجود»، وص 189 ثميل ونفول، وص 220 متبول وتحويل، وص 287 «مرقوم» و«تدويم» و «يحاميم»...

كما يكثر نوع آخر من السناد اضمحَل فتجد في لامية مجرورة (ص 190 - 195) يعتور ما قبل اللام الكسر والفتح والضم: الإيِل، ميل، لم يحُلِ. وفي دالية مجرورة (ص 75 - 80) تعتور حروف ما قبل اللام الضم والكسر والفتح على وجه يفوق ما في اللامية: عقَدِ، نجِد، أجدِ.

والسناد، هذا في جملته مقبول لدى العروضيين، وهو من مألوف الشعر العربي ولدى كبار الشعراء، ولم يكن مستغرباً وكأنه ليس بعيب. ولكني أراه نقصاً كبيراً في الموسيقى. وقد أكون مبالغاً، ولا شك في أن النبهاني رآه بارزاً عند امرىء القيس (وغيره)، ولكني أطلب الكمال، وإلاّ فهو حاصل على مر العصور، وربما دعا إليه ضيق بالقافية الواحدة ولا سيما حين يطول النفس .

وتبقى مسألة التضمين (العروضي..) وهو معدود في عيوب القافية لدى «تعلق قافية بأخرى بحيث لا تكون القافية - مستغنية - عن البيت الذي يليها...».

ولدى سليمان بن سليمان النبهاني «تضمين» كثير، منه (ص 17)

كأن الرحيق، مسكاً سحيقا ونشر العبير وصافي الضرب

يُعلُّ به مَوْهنا ثغرها إذا ما الدجى بالصباح انثقب

ومنه (ص 201)

فما الغيثُ عمَّ الشرق والغربُ مُزْنَه وجاد فساوى بين وهدٍ وأجبالِ

بأجود مني، لا ولا البحرُ هيَّجت أواذيَّهُ يوماً عرانينَ شِمآلِ

ومنه، ومنه ص 30، ص 56، ص 76 - 77، ص 100، ص 129، ص 161، ص 201.

وتسأل لم هذه الكثرة؟

والجواب حاضر، لأنه كائن لدى شعراء العربية الكبار «كلهم» ويكفي أن يقرأ إنسان ديوان حامل لواء الشعر العربي (امرىء القيس) ليراه، ويراه متكرراً. وحسبك أن تراه في «المعلقة» حيث الليل :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله   عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي   بصبح، وما الإصباح عنك بأمثل

وإذا كان قائد الشعراء قد «ضمّن» وفي رأس المعلقات، فكيف تريد «فتىً» اسمه سليمان بن سليمان النبهاني لا يلتفت إليه ولا يعجب ولا يتمثل فينساب «الفن» إلى نفسه معتصماً بالذوق والإعجاب محفوظاً من تقولات «علماء العروض» في عيبهم مكروهاً أكان أم مقبولاً!

ثم تأتي اللامية الثانية اللاحقة باللامية الأولى ويأتي معها تضمين «ومثلك بيضاء العوارض طفلة...» وتقرأ الديوان فتقرأ تضمينات لا تضميناً واحداً، وفي القصيدة الواحدة أكثر من تضمين واحد. وتريد - بعد ذلك ألاّ يكثر سليمان بن سليمان النبهاني من التضمين وهو الذي يأخذ الفن من أهل الفن. وكيف يقرأ امرؤ قول الأعشى «ما روضة...» ويرى التضمين عيباً مكروهاً مرة ومقبولاً - بتفضل - مرة! ولا تكاد تجد شاعراً كبيراً - فضلاً عن المقلين والأقل كبراً - ولا تجد عنده التضمين!

فمن أين جاء علماء العروض بالعيب أو الإلحاق بالعيب؟ وكيف، ولماذا تابعهم الناس على أجيال وعصور؟

لا، لا، ليس التضمين عيباً، وليس قبوله تفضلاً، إنه فن عالٍ، ونهج جميل.

ولا يكتمل درس «الفن الشعري» عند سليمان بن سليمان النبهاني دون وقفة عند ظاهرة بارزة في ديوانه بدلالات مختلفة ودواعٍ مختلفة. تلك هي ظاهرة «المعارضة» أن ينسج شاعر قصيدة له على منوال قصيدةٍ لشاعر آخر في ضوء الوزن والقافية.

والمعارضة فن معترف به لأنه أمر واقع في الشعر العربي وليفهم - بعد ذلك - على الشكل الذي يريد التعرض له أن يفهمه، فالمعارضة من صغير لكبير، من مغمور لمشهور، والمعارضة خطوة تدريب وتقليد، والمعارضة من معجب لمعجب به، والمعارضة ادعاء وتحد للإتيان بمثلها أو بأحسن منها.

ولا ارى لسليمان بن سليمان النبهاني قصداً صريحاً إلى التحدي، ولنا أن نقول مطمئنين إنه اتجه إلى المعارضة مرة - وذلك لدى البدايات - ليتعلم، وليثبت قدمه، واتجه ثانية معجباً بشعراء أو قصائد لهم اسمهم العالي في تاريخ الشعر العربي ضمن نظرة سائدة - في عصره ، وقبل عصره - إلى قبول المعارضة والاعتراف بوجودها واتخاذ ما يجري منها موضوعاً للحديث والنقاش والموازنة.

أريد أن أقول: إن النبهاني عارض ، لأن المعارضة فن حاصل معترف به، ولأنه معجب يريد أن يعرب عن إعجابه، ولا بأس أن يرد اسمه حين ترد الأسماء الكبيرة، وما الذي يمنع في ذلك من ثقة بالنفس، وطموح إلى الاسم.

وإذا سقط كثير من المعارضين بسبب من ضيق موهبتهم، وتقدمهم إلى المعارضة بهدف شكلي وبممارسة تعليمية وبما يحسب زينة كما حسب التطرف في الجناس... فإن سليمان بن سليمان النبهاني من طبقة أخرى من طبقات المعارضين، من أولئك الذين يتخلصون مما يوصم به النظامون بأن ينقلوا القصيدة من تجربة صاحبها إلى تجربتهم، ولا تكاد تزيد في هذه الحال عن دافع مباشر للنظر في دافع لا يبدو مباشراً، ولا بأس من الاتكاء على الوزن والقافية، ولا بأس بتأثر يدلّ على نفسه، ولكن المهم ألاّ يبقى المعارض - ولا سيما عندما يشتدّ ساعده - عبداً للمعارض ، والمهم كذلك أنّه حين يتحرّر لا يتنكر - وهذا ما حصل لسليمان بن سليمان النبهاني في مجمله، وكيف يتنكر النبهاني لامرىء القيس أو المتنبي ؟!

وإذا شهدنا لسليمان بكثرة محفوظه، وبإعجابه الصادق بأعلام الشعر العربي (ولا سيما الجاهلي)، عرفنا سراً من أسرار المعارضة لديه، ولم نشتد في مؤاخذته إذا تشابه معنيان أو لفظان، ويكفي أن نعلم سلفاً، أنه يعارض ، وأنه لم يخف قصده الصريح إلى المعارضة.

والمعارضة، على أية حال ، لا تدخل في السرقات، فهي باب قائم برأسه. وكيف يسرق شاعر «صغير» شاعراً كبيراً يجله، وفي المشهور من القصائد بحيث ما يكاد يسمعه سامع حتى يرد الحق إلى أصحابه، وفي أصحابه من المشهورين الكبار: امرؤ القيس، وطرفة، والنابغة، ولبيد، والمتنبي، والمعري ومقصورة ابن دريد (ينظر عصر الامارات للدكتور شوقي ضيف 141، 143 وينظر للدكتور ضيف التطور والتجديد - موضوع: لوحات ذي الرمة 265 -).

وهذه أبرز معارضاته:

1 - ص 1 - 9، المقصورة النبهانية، معارضة لمقصورة ابن دريد:

يا ظبية أشبه شيء بالمها رائعة بين السدير فاللوى

(ينظر لمطلع قصيدة ابن دريد، شرح التبريزي، وشرح ابن خالويه).

2 - ص 89 - 92 .

صرفتُ بالاً عن سكينة هاجراً وسلوت هندا

عارض عمرو بن معد يكرب في:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا

3 - ص 154 - 158 .

ألا في سبيل المجد ما أنا صانع نفوع وضرّارٌ ومعطٍ ومانع

عارض أبا العلاء المعري في قصيدته من «سقط الزند»

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عَفاف وإقدامٌ وحزم ونائل

وقد التزم النبهاني البحر ولم يلتزم القافية.

4 - ص 195 - 204 .

لموذية بين الأنيعم فالخالِ محل محيل طاسم ماصح خالي

عارض لامية امرىء القيس:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

5 - ص 204 - 208

أمن تبّع أم أنت ليس بمنزل أوشمٌ بزند أم وحيٌ بجندل

عارض معلقة امرىء القيس.

6 - ص 217 - 219

أنا ترب الوفا ودربُ المعالي وغمامُ الندى وليث النزالِ

عارض المتنبي.

7 - ص 220 - 222

نأت بموذية القود المراسيل عني فقلبي في الأظعان متبول

عارض كعب بن زهير.

8 - ص 291 - 298

دعاك الهوى واستجهلتك المعالم وكيف تصابي المرء والشيب لازم

عارض المتنبي «على قدر أهل العزم».

وبعد فليس معقولاً أن يبذ سليمان بن سليمان النبهاني القصائد المعارضة أو أن يدل على شيء من الادعاء بذلك. إنما المعارضة فن قائم، النبهاني معجب أولاً بالقصائد التي يعارضها، ويحاول.

المصادر والمراجع

* ابن خالويه وجهوده في اللغة مع تحقيق كتابه شرح مقصورة ابن دريد (دراسة وتحقيق - الدكتور محمود جاسم محمد الدرويش. بغداد. دار الشؤون الثقافية العامة1990 .

* الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه - معروف الرصافي. بغداد 1375/ 1956 .

* الأعلام - خير الدين الزركلي. بيروت، دار العلم للملايين 1979 .

* تاريخ أهل عُمان. تحقيق دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ط ,2 القاهرة، آمون للتجليد والطباعة 1406/ 1986 - منشورات وزارة التراث القومي والثقافة - سلطنة عُمان . (المؤلف مجهول).

* تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغُمة الجامع لأخبار الأمة - تأليف سرحان بن سعيد الأزكوي العُماني، ط 2، القاهرة، مطابع سجل العرب 1406/ 1986 وزارة التراث القومي والثقافة - سلطنه عُمان.

* تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان - نور الدين عبدالله بن حميد السالمي. الجزء الأول، قام بطبعه وتصحيحه والتعليق عليه أبو اسحاق إبراهيم اطفيش الجزائري الميزابي. ط 2، القاهرة، مطبعة الشباب 1350 .

* التطور والتجديد في الشعر الأموي - الدكتور شوقي ضيف، ط 2 (مزيدة ومنقحة) القاهرة، دار المعارف 1959 .

* جمهرة النسب لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي. رواية السكري عن ابن حبيب. تحقيق الدكتور ناجي حسن. بيروت. عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية 1407/ 1986 .

* دولة اليعاربة، عائشة علي السيار، بيروت، والقدس 1975 .

* ديوان امرىء القيس - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة، دار المعارف، سلسلة ذخائر العرب (24)، ط ,4 سنة 1984 (الأولى 1377 - 1958) - دون نص .

* ديوان الستالي (أبو بكر أحمد بن سعيد الخروصي) تحقيق عز الدين التنوخي. ط 2، القاهرة، آمون للتجليد والطباعة 1403/ 1983 (ط 1 سنة 1383 / 1964) . منشورات وزارة التراث القومي والثقافة - سلطنة عُمان.

* ديوان الكيذاوي (موسى بن حسين بن شوال) 1405/ 1985 - منشورات وزارة التراث القومي والثقافة - سلطنة عُمان.

* ديوان النبهاني (سليمان بن سليمان النبهاني)، ط2، 1404/ 1984 . القاهرة، آمون للتجليد والطباعة، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة - سلطنة مسقط ، قدم له سليمان بن خلف الخروصي - الأصل ط . دمشق شرح وتحقيق عز الدين التنوخي .

* شرح ديوان امرىء القيس ـ حسن السندوبي ، ط 3، القاهرة، مطبعة الاستقامة 1373/ 1953 .

* شرح مقصورة ابن دريد ـ ابن خالويه، ينظر أعلاه: ابن خالويه .

* شرح مقصورة ابن دريد ـ الخطيب التبريزي، دمشق، المكتب الإسلامي، ط 1، 1380/ 1961,

* الشعر العُماني ـ الدكتور علي عبد الخالق علي. القاهرة، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية (90) 1984

* شقائق النعُمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عُمان ـ تأليف الشيخ محمد بن راشد بن عزيز الخصيبي. روي المطبعة الوطنية 1984 .

* عصر الإمارات (الجزيرة العربية، العراق، إيران) ـ الدكتور شوقي ضيف. القاهرة، دار المعارف، سلسلة تاريخ الأدب العربي (5) 1980 .

* عُمان... تاريخ يتكلم ـ محمد بن عبد الله السالمي (وناجي عساف). دمشق، المطبعة العمومية. (طبع على نفقة سليمان وأحمد ابني محمد السالمي) 1383/ 1963 .

* عُمان عبر التاريخ ـ سالم بن حمود بن شامس السيّابي. الجزء الثالث، القاهرة. مطابع سجل العرب، ط 2 ، 1407/ 1986 .

* عن الكتاب الأدبي في الخليج العربي ـ علي جواد الطاهر. بغداد، الموسوعة الصغيرة (301) 1989 .

* قصص وأخبـار جرت في عُمان. تحقيق عبد المنعم عامر. ط 2، القاهرة، مطابع سجل العرب 1304/ 1983 منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان.

* لسان العرب ـ ابن منظور. بيروت، دار صادر (مح، سمط، سند...).

* معجم البلدان ـ ياقوت الحموي. بيروت. دار صادر.

* ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ـ السيد محمد الهاشمي . القاهرة ط 1، 1370، 1951.

* نظرات في لغة طيء ـ الدكتور محمد الفجال . الرياض ، مجلة العرب ، الجمادان 1410 / 1989.

* ـ نهضة الأعيان بحرية عُمان ـ أبو بشير محمد شيبة بن نور الدين عبدالله بن محمد السالمي. القاهرة. دار الكاتب العربي. د.ت. .

* الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ـ أحمد الاسكندري ومصطفى عناني. ط 16، القاهرة، دار المعارف. د. ت (ط 1 سنة 1335/ 1916).

المحتوى

صدر عن دار الحوار

* المباحث النقدية في أمالي المرتضى ـ د. محمد وليد خالص
* مقدمة الى العقائد الكونية الإسلامية ـ سيد حسين نصر
* سحر الرمز والاسطورة ـ مجموعة
* الكتاب الهندي المقدس ـ شارستري
* كريشنا ـ الاسطورة الهندية ـ لا. م. مونتسيني
* تقنيات الكتابة ـ مجموعة
* الابداع الروائي اليوم ـ مجموعة
* فتنة السرد والنقد ـ نبيل سليمان
* سيرة القارئ ـ نبيل سليمان
* الرواية العربية والحداثة ـ محمد الباردي
* التفكيكية ـ النظرية والتطبيق ـ كريستوفر نورس
* نظرية الاستقبال ـ روبرت سي هوب
* الاسطورة والمعنى ـ شتراوس
* منعطف المخيلة البشرية ـ صموئيل هنري هووك
* التخييل الروائي للجسد ـ نعمة خالد
* مقدمات في سوسيولوجية الرواية ـ لوسيان غولدمان
* صورة التركي في الشعر العربي ـ نعيم اليافي

الغلاف : ناظم حمدان





دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية ـ اللاذقية ـ ص.ب. 1018 ـ هاتف 422339